

الثلاثاء ٩ صفر سنة ١٣٦٤ — ٢٣ يناير سنة ١٩٤٥

بعد الهجوم الألماني

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان الهجوم الألماني الأخير في الميدان الغربي مفاجأة شديدة للجيوش المتحالفة، وقد كان الرأي السائد دائماً حتى بعد أن بدأ الحلفاء هجومهم على ألمانيا واستطاعوا أن يقتحموا حدودها الغربية في عدة مواضع وأن يستولوا على آخن أول المدن الألمانية الكبرى، أن ألمانيا ما تزال على جانب عظيم من القوة والأهبة، وأنه يجب أن يحسب لقدرتها الدفاعية أعظم حساب، وأنها لن تهزم في ميدان الحرب إلا بعد معارك طاحنة؛ وكانت صلابة المقاومة الألمانية في كل موقعة وفي كل خطوة تؤيد هذا الرأي. ولكن كان من المشكوك فيه مع ذلك أن يستطيع الرخشفر (الجيش الألماني) بعد ما أصابه من الهزائم المتوالية في الشرق والغرب، أن يضطلع بمثل هذا الهجوم القوي وعلى هذا النطاق الواسع، وأن يعود فيندفع بمثل هذا العنف الكاسح إلى الأمام مرة أخرى.

وإذاً فقد كان هجوم المارشال فون رونشتت في القطاع الأوسط في شرق البلجيك مفاجأة خطيرة للقيادة المتحالفة خصوصاً وقد [illegible] التقدم الألماني في أيام ثلاثة [illegible]، ولم يكد يفيق الحلفاء من الصدمة الأولى حتى كان الألمان قد بلغوا قلب البلجيك على مقربة من لياج ونامور، ولم يبق بينهم وبين نهر الموز أحد أهدافهم الرئيسية سوى أميال قليلة. وهنا فقط استطاع الحلفاء وقف الهجوم بعد أن احتل الألمان داخل خطوطهم شقة واسعة طولها نحو أربعين ميلاً وعرضها نحو ثلاثين، واقتربت خطوطهم الجنوبية الشرقية من مدينة ستراسبورج، والجنوبية الغربية من ثغرة سيدان، وفصلوا بهذا النتوء العميق بين جيوش الحلفاء الشمالية والجنوبية.

وقد خبت شدة الهجوم الألماني بعد شهر من بدئه، وانقلب الألمان من الهجوم إلى الدفاع في معظم النقط، وأخذت الشقة التي استولوا عليها تنكمش شيئاً فشيئاً تحت ضربات المارشال مونتجمري. ومن المرجح أنه لن يمضي أسبوعان أو ثلاثة حتى يستطيع الحلفاء إزالة النتوء الألماني بأكمله، ورد الألمان إلى خطوطهم الأولى، إلا إذا حدثت مفاجأة جديدة واستطاع الألمان استئناف هجومهم في اتجاه جديد.

على أن وقف الهجوم الألماني والقضاء على آثاره المادية على هذا النحو لا يعني أنه لم يحقق شيئاً من النتائج التي علقتها القيادة الألمانية عليه أو أنه فقد جميع الآثار التي ترتبت على حدوثه؛ والأمر بالعكس، فقد كان لهذا الهجوم آثار بعيدة المدى سواء من الناحيتين العسكرية أو السياسية، وسواء من الناحية الألمانية أو من ناحية الحلفاء. ذلك أن هذا الهجوم قد وقع في الوقت الذي بلغت فيه ثقة الأمم المتحدة بالنصر وقرب نهاية

الحرب أقصاها ، وكان المفهوم أن قيادة الحلفاء تعد العدة للهجوم النهائي على ألمانيا من الغرب في الوقت الذي يقوم فيه الروس بهجومهم النهائي من الشرق ، فجاء الهجوم الألماني معطلا لهذه الخطة ، وبدأ الروس هجومهم من الشرق ، بينما شغل الحلفاء في الغرب برد الهجوم الألماني والقضاء على آثاره . وهذا التأخير عند الألمان مهلة جديدة من الوقت يستطيعون فيها أن يضاعفوا أهباتهم الدفاعية ، وقد يترتب على ذلك أن تطول المقاومة الألمانية ، ويطول أمد الحرب عما قدر له في الربيع القادم أو الصيف .

والواقع أن إطالة أمد الحرب من الأهداف التي ترمي اليها القيادة الألمانية ، وقد رأينا هتلر يظهر في فاتحة العام الجديد عقب اندلاع نطاق الهجوم الألماني لأول مرة بعد صمت دام مدة أشهر ، ليؤكد للعالم من جديد أن ألمانيا لن تجثو على ركبتيها كما حدث في الحرب الكبرى ، وأنها سوف تقاتل حتى النصر أو حتى تحصل على تسوية عادلة ، وأن أعداء ألمانيا يخطئون في الاعتقاد بقرب نهاية الحرب ، وفيما يضعونه منذ الآن لتصفية ألمانيا من الشروط . وكان من الواضح حينما ألقى هتلر خطابه ، وحينما بلغ الهجوم الألماني أقصى مداه ، أن الهدف الأول من أهداف هذا الهجوم هو العمل على تقوية الروح المعنوي في ألمانيا بعد أن تطرق اليه الوهن واليأس ، وذلك بانتقال الزحف إلى ميدان الهجوم مرة أخرى . ومن المعقول أن يتحقق الأثر المنشود وتنهض روح الشعب الألماني المعنوية إلى حين .

ومن جهة أخرى فان إطالة أمد الحرب على هذه الصورة قد تحدث في الأمم المتحدة بعض الآثار المعنوية التي تستطيع ألمانيا استغلالها ؛ فأمريكا قد تشعر بالملل والسأم من استمرار الحرب الأوربية على هذا النحو ، بينما عدوها الأصلي وهو اليابان مازال رابضا في معاقله محتفظا بجميع قواه ، وقد يطرق مثل هذا اليأس كذلك إلى الشعب البريطاني ، ويؤدي هذا وذاك إلى تسرب [illegible] الأمم المتحدة [illegible] إلى [illegible] شروطا أكثر سخاء واعتدالا .

ولكن كل ما هنالك بالعكس يشير إلى انهيار هذا الأمل الخلب ، فقد أعلن الرئيس روزفلت أنه لابد لإحراز النصر من القضاء على آخر جندي ألماني ، وأن القضاء على ألمانيا النازية هو أول شروط النصر على اليابان لأن ألمانيا هي العدو الأساسي ، وأن أمريكا سوف تضاعف جهودها في سبيل تقصير أمد الحرب في أوربا . ومثل هذه النغمة تتردد اليوم في إنجلترا ، بعد أن انقشع خطر الهجوم الألماني ولم يسفر عنه تبديل خطير في الموقف الحربي . وقد عاد مستر تشرشل فأكد بالأمس في مجلس العموم مرة أخرى أنه لا يوجد أي تفكير في عقد الصلح مع ألمانيا ، وأنه لابد من استسلامها بلا قيد ولا شرط ، وسوف يستمر القتال حتى يتحقق هذا الاستسلام . وهكذا يبدو أن الأثر المعنوي الذي أحدثه الهجوم الألماني في إنجلترا وأمريكا جاء عكس ما رجوه الألمان ، وأنه إذا كانت القيادة الألمانية قد حققت من ورائه بعض المزايا المادية والأدبية المؤقتة ، فقد أفاد منه الحلفاء أيضاً مثل هذه المزايا ، إذ تنبهت الدوائر الإنجليزية والأمريكية مرة أخرى إلى خطر الإغراق في التفاؤل والركون إلى فكرة النصر العاجل . وكان الهجوم الألماني نذيراً جديداً بمضاعفة الجهود وشحذ الهمم لتحقيق النصر المنشود بأسرع ما يستطاع .

* * *

والآن وقد بدأ الهجوم الروسي المعظم في الشرق بعد استعداد طال أمده فإنه يحق لنا أن نتوقع تطورات خطيرة في الموقف الحربي . وتدل أنباء الهجوم الأول على شدته وعنفه واتساع نطاقه . ونحن نكتب هذه السطور وأمامنا أنباء سقوط وارسو وكراكوف وكلاهما من أعظم معاقل الألمان في الجبهة الشرقية . وسقوط العاصمة البولندية يمهد الطريق لزحف الجيش

الأحمر إلى برلين . وسقوط كراكوف التي لا تبعد عن سيليزيا الألمانية سوى مسافة قصيرة يفتح الطريق إلى سيليزيا وعاصمتها برزلاو ، وهي من أهم مراكز الصناعات الحربية الألمانية . والواقع أن كل ما هنالك يؤيد أن الهجوم الروسي الحالي هو الهجوم الحاسم الذي أشار إليه المارشال ستالين في خطابه السنوي في نوفمبر الماضي حينما أشار إلى أن الجيش الأحمر سوف يحتل برلين وسوف يخفق عليها العلم السوفيتي وهذا كلام يردده اليوم كاتب روسيا الكبير إليا إهرنبورج في جريدة البرافدا لمناسبة هذا الهجوم . وإذا استطاع الجيش الأحمر أن يستمر في زحفه الكاسح على هذا النحو فإننا سوف نشهد في القريب العاجل أعظم المعارك الفاصلة التي يستطيع الجيش الألماني خوضها قبل انهياره الأخير .

ومن المتوقع في نفس الوقت أن ينشط الحلفاء في الغرب فيشنون هجومهم المنتظر بعد القضاء على نتوء الأردين ليتسق مع الهجوم الروسي في الشرق معاً حتى لا تستطيع القيادة الألمانية أن تتمتع بنقل قواتها الاحتياطية من جبهة إلى أخرى ؛ وبذلك تواجه ألمانيا النازية أخطر الأزمات العسكرية التي واجهتها بالاشتباك الطاحن في ثلاثة ميادين رئيسية كل منها يقع على مشارف الوطن الألماني ؛ هذا عدا القتال في ميدان رابع هو الميدان الإيطالي .

ولا مراء في أن ألمانيا النازية ستبدى أعظم مقاومة ولا سيما في الميدانين الشرقي والغربي ، ولنا أن نتوقع اشتداد المقاومة بالأخص متى وصل الروس إلى حدود ألمانيا الشرقية . ولكن يجب أن نذكر أن أمد هذه المقاومة ليس رهيناً فقط بقوة الجيش الألماني ، ولكنه رهين بالأخص بسلامة الجبهة الداخلية الألمانية . وقد أراد فون رونشتت أن يبث بهجومه في الغرب شيئاً من الأمل والانتعاش في نفوس الشعب الألماني ، ولكن هذا الأمل الخلب يتبخر اليوم سراعاً أمام ضربات الجيش الأحمر . والرجح أنه آخر هجوم يستطيع الرايخ أن يشنه [illegible] الخطر الروسي من الشرق أو يؤمن الشعب الألماني بالنصر بعد الهزائم الفادحة التي منى بها الرايخ ، ولكن زعماء النازية يقاتلون في سبيل إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، ولا سبيل للشعب الألماني أن يسلك أي سبيل آخر ، ولا بد له أن يمضي مرغماً في قتال لا أمل فيه ولا مخرج منه ، ذلك أنه يخضع لسلطان أشد هولا من سلطان المحن والشدائد التي يجوزها ، هو سلطان الجستابو ، فهو الذي يصفد أعناقه بأصفاد من حديد ، وهو الذي يحشده وراء الخطوط ويسحقه سحقاً . وقد أدرك النازيون منذ لاحت بوادر الهزيمة على جيوش الرايخ أهمية المحافظة على سلامة الجبهة الداخلية لمضي في القتال فلم يدخروا وسعاً في سحق العناصر المناوئة ، ولكن هل تثبت الجبهة الداخلية أمام الكوارث العسكرية الجديدة ؟ هذا ما يشك فيه كل الشك . وأغلب الظن أن الجبهة الداخلية سوف تنهار متى وصل الروس إلى أرض الوطن الألماني ، وعندئذ تنهار جيوش الرايخ على نحو ما حدث في سنة ١٩١٨ . وإذا استطاع النازيون بنوع من المعجزة أن يسيطروا مع ذلك على الجبهة الداخلية واستطاعت جيوش الرايخ أن تصمد حيناً أمام تيار الغزو الكاسح ، فإن هذه المرحلة الفاصلة من الحرب لا يمكن أن تدوم طويلا ، وقد لا تعدو الربيع القادم أو الصيف

محمد عبد الله عنان

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف
الإدارة — ٩ شارع الكرداسي
القاهرة
تليفون — ٦٢٣٩٠

روبابكيا !

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

لست أدري ما الذي حمل إلى ذهني صورة (الروبابكيا) عند خروجي من ذلك الحفل الرائع الذي اجتمع فيه من كبار الرجال عقد فريد . كان الحفل يضم طائفة ممن تفخر بهم مصر من العلماء والأدباء ، وسمعت فيه طائفة من المعاني ملأت قلبي سموا ، وملأت عقلي حكمة . ولكن لحظة من اللحظات وقفت فيه خاطري أخرج منه وصورة الروبابكيا تملأ خيالي . كانت صورة عجيبة ، ولكنها مع ذلك كانت واضحة ملحة ، فحاولت بكل جهدي أن أتخلص منها ولكني كنت كلما بالغت في التخلص منها عادت إلي أقوى وأوضح ، وكلما بالغت في إبعادها تفلتت من إرادتي وهاجمتني هجوما أعنف وأكثر إلحاحا .

والروبابكيا ، كما هو معروف ، لفظ يستعمله هؤلاء المساكين الذين يجولون في الطرق ينادون به يطلبون شراء الأشياء القديمة البالية ، وأصله على ما أظن لفظ إيطالي معناه الثوب الخلق ، ثم صير له الاستعمال معنى شاملا ، فأصبح المقصود به كل شيء قديم ، سواء كان ثيابا أو غير الثياب ؟ فقد تكون الروبابكيا قطعة من المعدن ، أصلها زهرية ، ثم تحطمت وتقددت حتى صارت نكرة لا صورة لها ، وقد تكون قطعة من الزجاج ، أصلها مصباح ، ثم تهشمت وانتقصت من أطرافها حتى صارت أبعد الأشياء من هيئة المصابيح ، وقد تكون قطعة من النسيج ، أصلها طنفسة إيرانية ثمينة ، ثم تمزقت وتقطعت وحال لونها وانطمس رسمها حتى أصبحت خيوطا متلبدة مثل [illegible] .

وهذه الأشياء القديمة تباع في المدن [illegible] ما لا خير فيه ، وبعد أن ضاعت [illegible] التي كانت لها قبل أن يعفى عليها الدهر ويطويها مر الأيام الذي يبلى الأشياء جميعا .

ولقد كانت تلك الحطام من قبل جديدة غير شك في وقت من الأوقات ، وكانت ذات رواء وبهجة ، وكانت ذات فضل عظيم في خدمة الناس . فكم من طنفسة غالية كانت من قبل موطئا للملوك ؛ وكم من مصباح محطم كان في زمن من الأزمان يرسل النور على صفحات كتاب يبدعه عالم عبقري ! وكم من زهرية شوهاء كانت في أول عهدها ذات رونق وبهاء ، يأتلق في ثغرها الزهر الباسم ، ويفوح من أنفاسها العطر الذي ينعش الأفئدة ! ولكن لا حيلة في تصاريف الزمان ، فمن طبعه أن يزيل رونق الجالس ، وأن يمحو آثار كل رواء . فهو لا يزال دائبا في أعقاب الكائنات حتى يحيلها بعد حين إلى حطام لا تصلح لما كانت من قبل بارعة في أدائه .

وللناس العذر في أنهم لا يبقون على ما ذهب خيره وضاع نفعه ، لأنهم يعانون الحياة وما فيها من مشقة ، فليس من العدل أن نلزمهم بتحمل عبء الأشياء بعد أن تبلى ، بحجة أن الوفاء يقضي عليهم بتحمل عبئها لما أدت من خدمتها . فالوفاء والعرفان وإن كانا فضيلتين ، فإن الحياة قاسية تلزم الناس من أجلها بالتخلص من كثير من الوفاء والعرفان .

وقد تكون الأشياء القديمة ، في بعض الأحيان ، مناط كثير من عزيز الذكريات ، ولكن الناس إذا خيروا بين الحياة وبين الذكريات ، لم يجدوا بدا من التعلق بالحياة ، وإغفال الذكريات .

وقد حاول بعض المتحمسين للفضائل أن يقاوموا هذا الطبع الإنساني ، لأنهم رأوا فيه نقصا لا يليق بكرامة القلب البشري ، فلجأوا إلى تأليف الأمثال والمواعظ التي تحض الناس على الاحتفاظ بالحطام القديمة ، على ما يبدو عليها من تهشيم ، فقالوا

مثلا : « لا جديد لمن لا خلق له » ، وقالوا : « من فات قديمه تاه » وقالوا : « السمن في العتاق » ، إلى غير ذلك مما يكثر ترديده على الألسنة . ولجأوا إلى التشبيه والاستعارة ، فقالوا : إن خير الخمور ما كان عتيقاً وإن الدن إذا ختم ووضع في الكهف ومر عليه القرن بعد القرن لم يزد القدم خمره إلا لذة ونشوة . وهذا كما يقولون صحيح ، فقد سمعنا أن بعض البلاد تخزن الخمور حقاً في الكهوف ، فإذا استخرجها الناس منها بعد قرون عادت عليهم بالثمن المضاعف . ولكن الخمر المعتقة صنف شاذ لا يقاس عليه ؛ فليست الأشياء القديمة كلها مما يزيده الزمن صلاحاً .

وقد لجأ بعضهم إلى التأليف القصصي التي تثير الخيال وتخدع الناس عن الحقائق ، فزعموا أن الأشياء القديمة البالية قد تكون في ظاهرها مهشمة ، ولكنها تنطوي على أسرار خفية كامنة تحت هيئتها الزرية ، ففي قصص ألف ليلة وليلة مثلا حاول المؤلف الماكر أن يوهم الناس أن « خاتم الملك » لا يبدو للأعين إلا في هيئة حلقة قديمة حقيرة من الحديد ، وأن السعيد المحظوظ هو الشخص الذي يوفقه حظه السعيد إلى التقاطه مع حقارة مظهره . وكذلك أوهموهم أن مصباح علاء الدين لم يكن سوى آلة صدئة تزدريها العين ، حتى إن العجوز باعته لبعض شراة (الروبابكيا) ببضعة قروش ، مع أنه كان ينطوي على أسرار عظيمة ، ويستطيع حامله أن يهتدي به إلى كل خيرات الأرض .

فبمثل هذه الوسائل حاول المتحمسون للعواطف النبيلة أن يثيروا خيال الناس حتى يحملوهم على احترام الأشياء القديمة التي لا يحسون نحوها احتراماً عند النظرة الأولى .

ولم تخل هذه الدعاية من أثرها في الناس ، فإن الكثيرين يزعمون أن الأشياء البالية القديمة قد تكون أكثر قيمة من الجديدة التي لا تزال بشوكها ، ولذلك يعتقد هواة السجاجيد الإيرانية أن القطع القديمة أغلى من الجديدة ، [illegible] وأروع منظراً وأمتن قواماً . ولا يمكن أن تقبل المعقول أن الطنافس القديمة تصير أغلى قيمة ، بعد أن يمضي عليها الزمن الطويل ، وبعد أن تدوسها آلاف الأرجل ، ويفعل فيها الحر والبرد ، ويحول لونها من أثر الشمس ، ويرهى نسيجها من الخيط [illegible] عند التنظيف . ولكن هكذا يعتقد الهواة . ولا شك في أن لهم في ذلك الاعتقاد حجة ، وأما أنا فلو عرضت على طنفستان إحداهما جديدة والأخرى بالية ، لما اشتريت إلا الجديدة التي تستطيع أن تخدمني مدة طويلة من السنين ، فمهما يكن من أمرها فمن المؤكد أنها ستصير بعد خدمتها الطويلة بالية قديمة ، ولن أعدم أحد هؤلاء الهواة أبيعها له بعد قدمها بثمن عظيم .

ولكن الصعوبة التي تعترض الإنسان عند ما يفكر في الأشياء القديمة لا تبلغ من التعقيد حد الإعجاز ، لأن الناس في حياتهم العادية لا يبالون الأسمال ولا الطراقات ، ولا ينظرون إلى الأشياء القديمة نظرة المتحمسين من عشاقها ، بل يقذفونها في جانب الطريق أو يبيعونها لمن يريد شراءها بثمن بخس دراهم معدودة .

والصعوبة الحقيقية إنما هي في الإنسان نفسه إذا صار قديماً . ولست أدري لماذا يميز الإنسان نفسه على سائر المخلوقات والمصنوعات ، فيزعم أنه يزداد قيمة كلما زادت عليه السنوات مروراً .

والحقيقة القريبة من المعقول هي أن الإنسان خاضع للقانون العام الذي تخضع له جميع الأحياء ، فهو ينشأ صغيراً ثم يكبر حتى يتم نضجه ، ثم يرد إلى أرذل العمر حتى لا يعلم بعد علم شيئاً . فهو يبلى ويصير خلقاً ، ويتحطم كما جرت سنة الكون في الخلق جميعاً .

ولكن الإنسانية لن تسمح في يوم من الأيام بأن يباع الناس لشراة (الروبابكيا) إذا بلغوا أرذل العمر وشارفوا حد البلى وأصبحوا خلقاً . لأن الأخلاق الفاضلة تحتم عليهم أن

يستشعروا الرحمة والعرفان والوفاء ، وتوجب عليهم أن يذكروا فضل الإنسان القديم عليهم عندما كان جديداً ، وأن يكافئوه بعد قدمه بما قدم لهم فى أوان جدته .

والإنسان الحديث فى هذه العصور يختلف فى هذا عن الإنسان الأول فى العصور السالفة أيام وحشيته . فقد قيل إن قبائل المتوحشين فى القرون الخالية كانت إذا وجدت الشيوخ قد بلغوا حد البلى وأحسوا أنهم قد أصبحوا لا يصلحون للحياة فى الحرب ولا فى السلم ، اجتمعوا فى يوم عيد ، وأوقدوا النيران ، ورقصوا حولها ، ثم أتوا بالشيوخ الذين أصبحوا لا يصلحون للحياة فقذفوا بهم فى النار ، وأقاموا وليمة على لحومهم المشوية .

هكذا ، على ما يقال ، كان دأب البشر فى أيام الوحشية الأولى ، ولكن الإنسانية قد ارتقت وأصبحت اليوم أكثر رحمة ووفاء وعقلاً ، فهى تكتفى بأن تجعل للشيوخ مكاناً محترماً فى مجتمعاتها ، أو تجود عليهم بتقبيل الأيدى وإحناء الرءوس احتراماً ، حتى لا تشعرهم بأنهم قد فقدوا قيمتهم الأولى . والشيوخ ، فى أغلب الأحوال ، يحسون بهذا الوفاء ، ويقابلونه من جهتهم بأن يتنحوا عن الميدان الذى يحتاج إلى السعى والجرى والوثب ويقنعوا بالصورة الباقية من ماضيهم البعيد ، ويبعدوا عن الأنظار إلا إذا طلب منهم أن يؤدوا شهادة عما حدث فى أيامهم أو يبدوا رأياً فى أمر من الأمور مستأنسين بتجربتهم الطويلة ، فيقوموا عند ذلك بالإدلاء بآرائهم ، ثم يعودون إلى أماكنهم الأولى حتى [illegible] من هذه الأرض كراما .

[illegible] الشيوخ [illegible] أنهم لا يقوون على هذه [illegible] بعد أن تصبح ضرورية ، ويصرون على الضرب فى رحبة الميادين ، ويخاطبون الجيل الجديد بلغة عصر منقرض ، ثم قد يزيد بهم الحرص فيريدون أن يخوضوا معارك ذلك الجيل الجديد بسلاحهم القديم ، مع الإصرار على أن يحتفظ الشباب بالوفاء والإجلال لهم ، فلا يرفع يداً فى وجوههم ، ويسلم الأمر بالقضاء ، منتظراً ما تسفر عنه المعارك التى يخوضونها بأسلحتهم القديمة .

وإنه لما يؤسف له أن هذه المعارك تنجلى دائماً عن هزيمة السلاح القديم والساعد المرتعش ، لأن نضال الحياة لا يعرف وفاء ولا مجاملة .

هذه المعانى وأمثالها ثارت فى ذهنى وأنا خارج من الحفل الرائع الذى اجتمع فيه صفوة من الرجال ، مع أنى حضرت فى هذا الحفل ما ملأ القلب حكمة وروعة ، ولكنها صورة ملحة ما زالت تقف أمام خيالى تنادى منذ خرجت من ذلك الحفل قائلة : « روبابيكيا » .

محمد فريد أبو حديد

أدب الجهاد في سبيل الله

للأستاذ محمد خلف الله

— ٣ —

كان « عبد الله بن عباس » (رضى الله عنه) يسمى سورة الأنفال « سورة بدر »(١) ، ذلك لأنها — كما رأينا — نص فى موضوع تلك الوقعة التى كانت مفتاح الحروب بين المسلمين وخصومهم ، والتى أفاد المسلمون من انتصارهم فيها ثقة واطمئنانا كان لها كبير الأثر فى المعارك التالية .

وسورة « آل عمران » — وهى السورة التى نزلت بعد الأنفال — تعالج موضوعين رئيسيين : أحدهما محاجة أهل الكتاب ، والثانى غزوة أحد(٢) . وقد يبدو أن الموضوعين منفصلان والقرآن من هذه الناحية أنماط : فمنه ما يعالج موضوعا واحداً لا يستطرد منه إلا يسيرا كسورة « الأنفال » و« براءة » ، ومنه ما يعالج أكثر من شأن كسورة « البقرة » . غير أنه يبدو لى أن هناك جهة اتصال بين الموضوعين اللذين تعالجهما « آل عمران » ؛ فقد كان أهل الكتاب — ولا سيما اليهود — الجبهة الثانية التى لم يكن للرسول مناص من أن يوليها عناية وحذراً . والمفسرون وكتاب السيرة يذكرون أن فريقاً من اليهود قد بدأوا يظهرون الاعتداء بعد وقعة بدر ، وينقضون الحلف الذى عقده الرسول معهم ، وأن الرسول قد جمعهم فى سوق بنى قينقاع وحذرهم أن ينزل بهم ما نزل بقريش ، فقالوا : لا يغرنك أنك لقيت أقواماً أغماراً لا علم لهم بالحرب(٣) ، إنا والله لئن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس ، فأنزل الله فى قريش واليهود من شأنهم : « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية فى فئتين التقتا (يوم بدر) فئة تقاتل فى سبيل الله ، وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم رأى العين ، والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » ؛ ثم أكد الله للمؤمنين قلة خطر أهل الكتاب فى القتال ، وحذرهم مغبة الركون إليهم ، فقال : « لن يضروكم إلا أذى ، وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون . ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس ، وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة . ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » . « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ، ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر . . . ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقوكم قالوا آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ . . . إن تمسسكم حسنة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ، وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ، إن الله بما يعملون محيط » .

ولعل هذه السيئة التى فرح بها الشامتون المتشفون إنما كانت هزيمة المسلمين يوم أحد ، وهى الموضوع الذى تنتقل إليه السورة بعد ما سبق مباشرة . والآيات هنا تعرض من فن القرآن ما يروع بتصويره ويروق بجماله ؛ وتثبت ما قصدنا إلى إبرازه فى هذه السلسلة من المقالات ، وهو جلال القرآن فى تسجيل أحداث الدعوة الإسلامية ، وبلوغ أسلوبه فى الروعة والتأثير حداً يقصر دونه التطاول . والواقع أن نظم القرآن يسير وهذه الأحداث سيراً فنياً بارعاً مطرداً ، يصور دقائق شئونها ، واختلاف حظوظها ، ويستخرج من

(١) عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس سورة الأنفال ، قال : تلك سورة بدر [الإتقان للسيوطى ج ١ ص ٤٠ طبعة ١٩٣٠] .

(٢) سورة آل عمران مائتا آية منها حوالى ثمانين فى محاجة أهل الكتاب ، وستين فى وصف ما كان فى « أحد » .

(٣) يظهر أن هذه التهمة جانبا من الصحة ، فإن ابن سلام يقول [فى طبقات الشعراء] : « والذى قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم النائرة ولم يحاربوا . . . » .

كل هزيمة فيها أو انتصار فرصة لتثقيف المسلمين وتوجيههم إلى معالي الأمور. فهذا «محمد» يوم أحد — وقد غدا من أهله يبوئ المؤمنين مقاعد للقتال، ويقدر حق المعركة قدره، وتهم طائفتان من المؤمنين أن تفشلا — والله وليهما! ولو توكل الجميع على الله لكفاهم، أليس قد نصرهم ببدر وهم أذلة، وأمدهم بالملائكة مسومين، ليكون ذلك بشرى للمسلمين ولتطمئن به قلوبهم!.

ثم يشج الرسول وتكسر رباعيته، فيمسح الدم عن وجهه، ويهم بالدعاء على أعدائه، فيخاطبه الله أن ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم، فإن له ما في السموات وما في الأرض. ويحزن المسلمون لما أصابهم وتنخلع قلوبهم لما أرجف به المرجفون من موت الرسول. ويكاد فريق منهم ينقلب على عقبيه فيتنزل عليهم عزاء الله وتثبيته، وتتكشف لهم بعض حكمه فيما يبتلي به عباده من محن وتمحيص، ويتحول الموقف من هزيمة مادية عارضة إلى نصر معنوي خالد.

اقرأ آيات القرآن في هذا الموضوع تر كيف تتفنن في تصوير ما حل بالمسلمين، متعمقة في تصويرها، مبينة أسباب الهزيمة، مداوية جراحها ببلسم العفو والأمنة، مواسية حينا، وملتمسة المعذرة للمسلمين حينا آخر، كاشفة القناع عن خداع المنافقين، مبرزة رفق الرسول ولطف قلبه ولينه مع صحبه، ناصحة له أن يعفو عنهم، ويستغفر لهم ويشاورهم في الأمر؛ مبينة جلال الصبر والاحتمال عند المسلمين الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، فخرجوا في طلب المشركين، ولم يبالوا بما جمع لهم الناس، بل زادهم ذلك إيمانا، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل.

أرأيت كيف تجيء العبارة أسلوبا وألفاظا وموسيقى وجرسا على قدر الموقف ووفق مقتضياته؟ أرأيت إلى العزاء المطمئن للنفوس المثير لروح العزة في «ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين» [illegible] إلى تحريك نواميس الحياة في «إن يمسسكم قرح [illegible] ... «ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون»؟ وإلى تعليم المسلمين كيف ينظرون إلى الرسالة وصاحبها في نظام الوجود الأكبر في «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم»!.

استمع إلى العزة والجلال يتكافآن في «ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة». «وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم» ... «ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم» .. «وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا» ... «قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم». «ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون» ... «قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين».

تأمل في عتب اللطيف ورحمة الجبار وأدب الكريم في قوله «ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه، حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم، ولقد عفا عنكم، والله ذو فضل على المؤمنين. إذ تصعدون ولا تلوون على أحد، والرسول يدعوكم في أخراكم، فأثابكم غما بغم، لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم، والله خبير بما تعملون». الآيات إلى آخر السورة.

هذا التصوير الأدبي — كما يرى القارئ — تصوير شامل يتناول خفايا النفوس كما يتناول ظواهر الأمور. ويصف المسلمين ناجين ومنهزمين، كما يصف المنافقين قاعدين ومعوقين؛ يؤنب ويصفح، ويحث ويؤدب؛ كل ذلك في صياغة فريدة، لا نهاية لنواحي الروعة والجمال فيها، تمتع العقل والحس معا، وتشبع الذوق أيما إشباع. ومن المفيد والطريف معا أن نضع بجانب هذا التصوير قصص السيرة وشعرها في مثل هذه الموضوعات، لنرى مقدار ما أشرت إليه في أول

هذه السلسلة من التفاوت البين بين القرآن وغيره من فنون الأدب ، ثم لنرى كيف تؤلف ثلاثة الفنون مجتمعة مصادر وحي وإلهام لأدب عربي أصيل من الطراز الأول . وإن كتاباً يقوم على هذه النواحي ، ويحاول مع ذلك أن يتناول بالتحقيق والنقد ما أوردت كتب السيرة من شعر (1) ، لخليق أن يضيف ناحية طريفة إلى دراسات السيرة ، وباباً جديداً من أبواب البحث القرآني ، تتصل فيه سلسلة الدراسات التي قام بها العلماء في مختلف الأعصار الإسلامية على أمثال القرآن ، وأقسامه ، وجدله ، ومبهماته ، وقصصه ، وما إلى ذلك من جهاته التي لا ينضب معينها .

ولقد كان مما يسهل تحقيق هذه الفكرة أن توجد لدينا مراجع تعين على ترتيب القرآن حسب نزوله (2) ، أو حسب موضوعاته . فأما وذلك غير موفور ، فالطريق — إذاً — دراسة القرآن نفسه دراسة فاحصة ، ثم التنقيب في كتب السيرة وفي التفاسير والصحاح ، والاستعانة بكل ذلك على جمع النصوص القرآنية في هذا الموضوع متتابعة متسلسلة ، حتى تتحقق الفائدة الأدبية والتربوية التي ننشدها . ولعل من أوائل الصعوبات في هذا أن أغراض القرآن كثيراً ما تكون متداخلة مترابطة ، وليس من اليسير في كل حالة تحديد النصوص الخاصة بهذه أو تلك من الغزوات . ثم إن هناك من السور ما يتناول مسألة القتال تناولاً عاماً (1) فلا يشير إلى حوادث بذاتها يمكن من طريقها ربط السورة بفترة محددة أو موضوع معين من مواضيع الجهاد .

(البحث بقية) محمد خلف الله

(1) تناول الكاتب شيئاً من هذا في دراسة [شاعر الرسول] .

(2) يذكر « السيوطي » في الإتقان عن ابن فارس أن مصاحف السلف اختلفت في ترتيب السور . فمنهم من رتبها على النزول وهو مصحف « علي » كان أوله اقرأ ثم المدثر ثم ن ثم المزمل ثم تبت ثم التكوير ، وهكذا إلى آخر المكي والمدني . وكان أول مصحف ابن مسعود البقرة ثم النساء ثم = آل عمران على اختلاف شديد ، وكذا مصحف أبي وغيره . على أن من العلماء — كأبي بكر بن الأنباري والكرماني — من رأى أن اتساق سور القرآن كاتساق الآيات والحروف كله عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد النظم [illegible]

(1) من هذه السور سورة « محمد عليه السلام » وتسمى « سورة القتال » وهي مدنية ، وقيل مكية . وفيها حث المؤمنين على ضرب رقاب الكفار وشد وثاقهم بعد إثخانهم فإما مناً بعد وإما فداء ، وفيها نعي على المنافقين الذين كانوا يستمعون إلى الرسول حتى إذا خرجوا من عنده قالوا للذين أوتوا العلم : ماذا قال آنفاً ؟ وفيها كذلك تبكيت بعض المؤمنين الذين كانوا يقولون لولا نزلت سورة في أمر الجهاد « فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت » وفيها آية يرجح بعض المفسرين أنها نزلت في أصحاب القليب « إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم » . ولكن طابع السورة عام ومن الصعب تعيين زمان نزولها أو مناسبته ..

تصويب :

شجرة البؤس

وقع سهو مطبعي في فقرة من الفقرات المقتبسة من كتاب « شجرة البؤس » في صحيفة النقد بالعدد الماضي وصوابها كالآتي بزيادة الكلمات التي تحتها خط :

« وكان يضحكه أسرعهم إلى الضحك وأبطأهم في الرجوع إلى الجد ، لا يسخر من الأسرة وحدها وإنما يسخر من نفسه قبل أن يسخر من أي إنسان آخر »

وكذلك وقع في النص نفسه تحريف آخر صوابه :

« إنكم حين تشربون هذا الماء الصفو أشبه الناس بالذين يشربون اللبن بعد أن يستخرج منه الزبد » (لا الزبدة كما وردت خطأ) .

ساطع الحصري

وتوثيق الصلات الثقافية بين سورية والبلاد العربية

للأستاذ فؤاد

— ١ —

الأستاذ الحصري علم من أعلام الإصلاح والتجديد، في المجتمع العربي. ودعامة من دعائم النهضة الحديثة، في سورية والعراق. ومرشد محنك إلى سبل البحث القويم والتربية الاستقلالية. ومحارب لين الملمس شديد الوطأة، رهيف السلاح. له صولات وجولات في محاربة الاحتكار الثقافي الأجنبي في بعض البلاد العربية. أوتي الاطلاع الواسع على أمور الثقافة والتربية والاجتماع، ووفق إلى تفكير صحيح في مشكلاتها وتحليل دقيق لصعوباتها. يبدو لك ذلك كله، في دراساته الجياد عن ابن خلدون، وفي آرائه عن التربية والتعليم، وفي أحاديثه عن الوطنية القومية.

وقد أقتصر، حين أحاول أن أعرف الناس بالحصري، بهذا الرجل الكبير، القوي بإيمانه، المتمسك بعقيدته، الرابط الجأش أبداً، العامل بصمت وبراعة وإقدام. ولعل آثاره وأعماله وحدها، تنبئ عنه وتدل عليه.

وما أريد أن أغرق في التحدث عنه، وإن كنت أحب ذلك. إن هذه الشخصيات النادرات، تأسر الناس بأعمالها، وتدفعهم إلى الخوض حولها، والتحدث عنها، وإظهار محاسنها، وتبيان آثارها وفضلها. ولكني أريد أن أذكر أن سورية العربية [illegible] قبل الحصري [illegible] التعليم بها، [illegible] أيضاً يوم عين الداء، وكشف العلة ووصف بعض ألوان الدواء. وأن رجال سورية، دل على بالغه وقوته، يوم أقر اقتراحات الحصري، لإصلاح المعارف، بحماسة ثائرة، ورغبة شديدة.

والحق أن هذه الاقتراحات، كانت مثل (عملية) نقل الدم إلى الجسم الهزيل. فقد كانت برامجنا مكتظة بالدروس، تؤدي إلى التخمة القاتلة. وكانت ملأى بما يهزل القومية، ويضعف الدين، ويبعد عن العربية. وكانت احتكاراً يوصل إلى طرق يضل الطالب فيها، ولا يهدى، وإن هدى صبغ صبغة لا شرقية ولا غربية، وظل حائراً ... وقد يعنى بالقشور، وقد تفتنه الظواهر، ثم لا ينفذ إلى اللباب إلا قليلاً. أما سير الأمجاد، وأحاديث الأجداد، وغرائب البطولة، ونوادر العبقرة، وكنوز العربية، وتربية النفس، وإنماء الشخصية ... فقد نسمع بها، ولكننا قل أن نجدها.

* * *

في هذه الاقتراحات، تقرير عن توثيق الصلات الثقافية بين سورية والبلاد العربية. وهو تقرير محكم حسن. فقد بين بادئ ذي بدء، المظاهر التي تظهر فيها هذه الصلات الثقافية بين قطرين كالآراء، والنتاجات الأدبية والفنية والعلمية، وكتعارف المفكرين من أدباء وعلماء وساسة، في المحافل، والنوادي، والمؤتمرات. وكتوافد الطلاب والأساتذة على المعاهد العلمية والفنية والجامعات، وكغير ذلك.

وهناك أشياء توسع نطاق هذه الصلات، وتوثق أواصرها. كالكتب والجرائد، والمجلات، والأفلام، والأناشيد، والمعارض، والمؤتمرات.

على أن هذه الصلات، إما أن تكون ثنائية الطرف أو وحيدة الطرف. في الحالة الأولى، يكون القطران في اتصال تام. يأخذ كل من

الآخر ويعطيه . وقد تكون هذه الصلات متعادلة ، يأخذ كل قطر من الآخر بقدر ما يُعطيه . أو متفاوتة ، يأخذ أحدهما أكثر مما يعطى . أو يعطى أكثر مما يأخذ .

وفى الحالة الثانية ، يأخذ القطر الأول من الثانى كثيراً ولا يُعطى شيئاً . ويعطى القطرُ الثانى ولا يأخذ شيئاً .

على أن هذه الصلات ، مهما كان شكلُها ، فإن اللغة هى السبب الأول فى خلقها . فإذا كان للقطرين لغتان مختلفتان ، فالعلاقات الثقافية تبقى فى كل قطر ، محصورةً فيمن يعرف لغة القطر الآخر من المثقفين . وقد تخرج من هذا النطاق ، إذا تُرجمت المؤلفات ونقلت من لغةٍ إلى لغة . ونعتقد أن هذه الصلات الثقافية لا تقوى إلا إذا انتشرت لغة القطر الثانى وتُرجمت مؤلفاته .

أما إذا كان للقطرين لغة واحدة مشتركة ، فعندئذ تتسع الصلات وتكثر ، وتشمل الناس جميعاً . وإذا مُتنت هذه الصلات أدت إلى تمازج الثقافتين ، وإلى تكوين ثقافة موحدة للقطرين .

●●●

وينتقل الأستاذ الحصرى بعد ذلك ، فيذكر أن الصلات الثقافية قائمة بين سورية والبلاد العربيّة ، فى علاقات متينة الأساس ، طبيعيّة النشأ . يقول : « لأنها تنشأ من لغة واحدة ، وتتمثل بوحدة التاريخ ، وتنمو بوحدة المنافع ، وتقوى بوحدة الآلام والآمال . فهى عميقة الجذور ، شديدة الحيويّة » .

ولهذا نجد أن كثيراً من التيارات الفكرية والأدبية والفنية ، تربط سورية ، من حيث الثقافة ، بسائر البلاد العربية .

فنحن نرى أن كثيراً من أبناء سورية ، يعيشون فى بلاد عربيّة مختلفة . يعملون فى الحركات الأدبية والفنيّة والعلمية ، القائمة فيها . وأنّ كثيراً من طلاب سورية يتلقون العلم فى معاهد البلاد العربيّة ، وأن الصحف [illegible] تنتشر فى سورية انتشاراً كبيراً (يوشك انتشارها فى مصر نفسها) ، وأن عدداً غير قليل من أبناء سورية ومفكريها ، ينشرون آراءهم ومقالاتهم فى البلاد العربية الأخرى ، وأن كثيراً من السوريين يزورون البلاد العربية ويجتمعون برجال الفكر والآداب ، فيتعارفون ويتباحثون .

إذاً فهناك روابط كثيرة ، تربط سورية بغيرها من البلاد العربية . وهناك تيارات شتى تنساق سورية معها . غير أن هذه الروابط طبيعية وليست رسمية ، أى لم تمسها يد التنظيم الرسمى إلا قليلاً . « لقد أوفدت الحكومة السورية بضع عشرات من الطلاب إلى الجامعة المصرية . وأوفدت الحكومة المصرية بضعة أساتذة إلى بعض المعاهد الأهلية السورية . وانتخب المجمع العلمى العربى بدمشق أعضاء من أدباء البلاد العربية الأخرى . وعين مجمع فؤاد الأول بالقاهرة اثنين من مجمع دمشق أعضاء ، واشتركت سورية ، بصورة رسمية ، فى مؤتمرات الطب العربى . . . »

ثم ماذا بعد هذا ؟

يقول الأستاذ : « ولا أُغالى إن قلت ما خلا ذلك ، إنما حدث بحكم الطبيعة ، ولم تساعد الحكومة عليه .

إذاً فقد آن الأوان لتبديل هذا الوضع الدائم ، وتنظيم هذه الصلات الثقافية وتوثيقها ، بغية إيصالها ، بأعظم ما يمكن من السرعة ، إلى أقصى درجة يمكن بلوغها . . . »

وفى سبيل ذلك ، فقد أثبت الأستاذ الحصرى فى القانون الذى قدّم إلى البرلمان السورى ، ليكون قانوناً لأعمال المعارف « أن من واجبات وزارة المعارف السورية ، تقوية الصلات الثقافيـــة بين سورية وشقيقاتها ، بغية تكوين ثقافة موحدة بين جميع البلاد العربية . »

وقد أقر البرلمان السورى هذا المبدأ .

ولكن كيف يتم هذا التعاون الثقافى ، وكيف تقوى هذه الصلات ؟

(البقية فى العدد القادم)

دمشق «فرزة»

أقصوصة موسيقى

للكاتب التشكوسلوفاكي الكبير كارل تشابك

تعريف : مؤلف هذه القصة أشهر كتاب تشكوسلوفاكيا المعاصرين ، ذاع شهرته منذ عشرين عاماً ، ثم عرفته انكلترا في السنين الأخيرة من حياته بأقاصيصه ورواياته ومسرحياته التي أخرجت إحداها على مسارح لندن ، وله في مجاليا الانكليز كتاب يدل فيه أسلوبه وشيق دعابته (رسائل من انكلترا) .. وقد توفي عام ١٩٣٨ في العقد الخامس من عمره .

« كاليبا » ضابط الإيقاع والموسيقي ، قال :

— إنه لشيء مؤلم ، أن تجد في نفسك الرغبة في أن تغني أحداً ، ثم لا تستطيع ذلك ، وهذا ما حدث لي ذات مرة حينما ذهبت إلى ليفربول لأقود حفلاً موسيقياً يقام هناك .

إنك لتعلم بعجزي عن التكلم بالانكليزية ، ولكننا معشر الموسيقيين يمكن أن يفهم بعضنا بعضاً وخاصة كلما أمسكت أيدينا على العصا القصيرة لنلوح بها ، فما عليك إلا أن تفرح بها ، وتتفوه بشيء وتلوح بيديك وتعيد ذلك مراراً ... حتى أشد الناس إرهاقاً يمكن أن يعبر عنها كذلك ، فمثلاً إذا ما الوحدة تبدو هكذا ، فإن كل امرىء يمكنه أن يرى في ذلك معنى تحرير النفس من إسار الهموم وأثقال الحياة وانطلاقها في عالم روحي غامض .

حسناً .. حينما وصلت إلى ليفربول كان أصدقائي الانكليز ينتظرونني على المحطة ، ولقد ذهبوا إثر وصولي إلى نزل لكيما أرتاح فيه وأستجم مما أفقدنيه السفر من نشاط ، ولكنني ما إن أخذت حماماً حتى ألفيت في نفسي رغبة في التجوال ... فكان ذلك ، على أنني ضللت سبيلي بعد ذلك .

إن أول ما أعنى به كلما حللت في بلد [illegible] أن أبحث عن النهر [illegible] إن النهر [illegible] ما أسميه (إيقاع المكان) . إنك ترى في جانب كل ضجيج الشوارع من الطبول والأبواق النحاسية الضخمة بينما تجد في الجانب الآخر وهو النهر ، رنين الأوتار وعزف القيثار ونغم المكان ، هنالك تستطيع أن تصغي إلى اللحن بأجمعها في آن واحد ...

ولكن النهر الذي يمر بليفربول والذي لا أعرف اسمه لغاية الآن ، على أنه ينساب هادئاً ويهدر ويتقصف ماؤه ويصطخب كلما ارتطمت أمواجه بالبواخر والزوارق والسفن والمخازن والأرصفة والرافعات ... ولقد قلت لنفسي : حسناً ، دع ذلك كله ، ولا بد أن يكون البحر محيطاً بهذا المكان ، فذهبت إليه هناك حيث ينساب ، فسرت وسرت ساعتين ، ولا شيء يرى أو أسمع غير المخازن والظلال والأرصفة ... وهنا وهناك قد ترى بواخر شاهقة كقبة الكاتدرائية ... لقد بعث ذلك إلى نفسي كثيراً من البهجة والمرح ، ولكن الليل كان قد هبط آنذاك ، وكنت قد بلغت في سيري مرتقىً رملياً ، وكان هنالك ضوء خافت يشع من منزل يقابلني وأنوار منيرة النور قلقة تخفق على بعد ... ربما كانت تصدر من البحر .

ثم جلست على كوم من الموج ، وأحسست بفيض من البهجة يغمرني إزاء هذه الظلال ... ولقد أصغيت بكل حواسي إلى هدير الأمواج وإيقاعها حتى أحسست بالصداع ، ثم جاء شخصان ، رجل وامرأة ، لكنهما لم يرياني ، ولقد جلسا قريباً من ظهريهما وراحا يتحدثان بخفوت ، ولو أنني كنت أفهم الانكليزية لكنت قد سعلت لأشعرهما بأنني سامع لحديثهما ، ولكنني لما كنت لا أستطيع أن أنطق منها بغير كلمتي القدح والشلن فقد عدلت عن ذلك ... واضطجعت .

لقد كان حديثهما أول الأمر خافتاً رقيقاً ، وكان الرجل يتحدث إليها بأناة وروية لكأنه يخشى أن تفوت أذنيها كلمة مما يقول ، ثم راح بعد ذلك بغتة يهدر بصوته متهجماً مغتاظاً

ولقد صرخت المرأة فزعة مرتاعة ، وقامت بدفع كانت تردّ بها عليه بعنف ، ولكنه أخذ بعد ذلك يكلمها من بين أسنانه حنقاً ، لم يكن هذا حديث عرق مما يجري بين حبيبين . كلا ، وليس هو في شيء من إغراء حبيب لحبيبه على فعل شيء أو إقناعه به . إن لكل ذلك أنغاما أخرى ليست من هذه الأنغام المتوترة الخائفة التي كانا يشتركان بها في شيء . إنما نجوى المحبين همساً حبيباً هادئاً عميقاً ، ولكن حديث هذين كان ذا نغم هادر وإيقاع موحد ، كأنما كان الرجل قد لبث يعيد ويكرر جملة واحدة .. لقد أحسست آنذاك بنفور وذعر مما أصغي إليه .. لقد كان الرجل يطالب المرأة في أقواله .. ولقد شرعت تبكي بعد ذلك وتعول ، وبين حين وآخر كانت تصرخ فزعة كما لو كانت تأبى شيئاً أو ترفضه ، ولكنه كان يحاول إقناعها ، وكان في صوتها شيء من حنان صوت (الزمار) وعذوبة نغمه ، ولم يكن في نبراتها ما يشي بشيء منها ، ولكن صوت الرجل الخشن وغلظ ، كأن في نبراته ما يدل على أنه يأمرها بشيء أو يهددها بما هو أبعث على الفزع منه ، فكان أن شرعت المرأة تتوسل وتتضرع بيأس وتلهث فزعة مرتاعة ، وبعد ذلك أخذ صوت الرجل يهدر في خفوت ، في نغمة صافية واثقة ، ثم استحال نحيب المرأة إلى تنهدات عميقة متقطعة ، فكان معنى ذلك أنها لم تعد تقوى على أن تقاوم بعد . أو أنها خضعت لوعيده . ولكن صوت (البوق) عاد بعد ذلك يرتفع مدوياً ، مضيفاً جملة إلى جملة في مقاطع مبتورة في حزم وحماسة ، وقد رافق هذا صوت المرأة تنوح أو تنهد مستسلمة يائسة .. إذ لم تعد ثمة مقاومة تنبض في صوتها ، خلا نبرات تدل على الخوف والفزع ، ليس من الرجل نفسه ، ولكنه فزع غامض من أمر سيقع . ثم سكنت حدة الرجل وآلت ثورته إلى حديث عميق ووعيد ناعم كما آلت نواح المرأة ونحيبها إلى تنهدات يائسة ملولة .. وصوت ذلك [illegible] الرجل [illegible] [illegible] ثم يهفت بعد ذلك [illegible] ..

إنك لتعلم أنني لا أعتقد بالأوهام ولكنني أعتقد بالموسيقى . فبينما كنت أصغي إلى حديثهما ذلك المساء ، أيقنت كل اليقين أن ذلك (البوق) الصخاب إنما يحاول أن يقنع ذلك (الزمار) العذب النغمة الحنون على أن يكون شريكاً في جرم ، وأيقنت ، أيضاً ، أن هذا (الزمار) سيخضع لما يراد منه .

لقد أصغيت إلى ذلك كله .. ولقد كان لي إصغائي ذاك ، أكثر من فهمي لما قالاه .. لقد أدركت أن ثمة جريمة على وشك أن ترتكب . وعرفت ماذا ستكون .

لقد عرفت ذلك كله من الفزع الذي كان يشوب صوتيهما ، من تحشرجهما ، من نغم حديثهما ، من سكوتهما وتوقفهما عن الحديث .. أرأيت ؟! أن الموسيقى أدق وأبلغ من الكلام ، إن ذاك (الزمار) العذب النغمة الحنون كان بسيطاً لم يقو على شيء ، ولكن ذلك (البوق) الهادر الصاخب كان يستطيع فعل كل شيء .. بينما كان ذلك (الزمار) يرتجف ويضطرب .

لقد انطلقت إلى البناية معتقداً بأن شيئاً على وشك أن يقع ، وأن علي أن أحول دون وقوعه . ولكن .. إنه لشيء غريب أن تجد مسألتي قد تأخرت كثيراً ...

لقد وجدت آخر الأمر شرطياً قد ركن من الشارع ، فهرعت إليه وأنا ألهث فزعاً :

(انظر .... هنالك جريمة تدبر في هذه البناية) . ولكنه هز كتفيه وقال بشيء لم أفهمه . ولقد قلت لنفسي : (رحماك يارب .. إنه لا يفهم كلمة مما أقول) وبرغم ذلك رحت أصرخ في أذنيه كما لو كان أصم : (إنها جريمة .. ألا تفهم ؟ إنهم سيقتلون امرأة مسكينة وحيدة ، وشريكهم في ذلك الخادم أو البواب ، آه يارب افعل شيئاً بحق السماء) . ولكن الشرطي هز رأسه وقال بشيء لم أفهمه ، ومع ذلك حاولت أن أشرح له الأمر ، وكنت مهتاجاً يغلي في السخط والفزع : « الآن

أسمع إلى : ستفتح تلك المرأة المسكينة الباب لحبيبها ، أتستطيع أن تراهن بحياتك على ذلك ، كل ما عليك .. أن تقبع هنا ، ابحث عنها » . . . ولقد تذكرت آنذاك أنى لا أعرف شكل المرأة ، وحتى لو كنت أعرف ذلك فلا أستطيع أن أصفها له .. آه يارب ، إنه لعدوان أن يحدث ذلك .

ولقد اقترب منى الشرطى الانجليزى وراح يحاول أن يهدئنى ، ولكنى قبضت على رأسى بيدى وصرخت : أنت مجنون . ثم قلت لنفسى .. حسناً سأتولى الأمر بنفسى .

لقد كان ذلك محض جنون ، ولكن كما ترى ، حينما تهدد حياة إنسان فلابد من جهد يصونها .. ولذا فلقد اندفعت فى شوارع لفربول طوال الليل على أرى أحداً يحاول أن يدخل إلى دار .. إنها المدينة عجيبة .. ساكنة فى الليل كالأموات .

ولما انبلج الصبح ، ألفيتنى جالساً على حجر أتنهد متعباً ، ولقد وجدنى الشرطى هناك ثم قادنى إلى المنزل .

لا أعرف كيف قضت الجوقة فى تجربة الحفلة ذلك الصباح ، ولكنى حينما قذفت بالعصا أخيراً إلى الأرض واندفعت إلى الشارع ، كان بائع الصحف ينادى بصحف المساء .

ولقد ابتعت واحدة كان فيها عنوان بارز (حادث قتل) وفى أسفله صورة امرأة ذات شعر أبيض .

(يتبع)

فيصل عبد الله الحامي

إسماعيل بك غاصبرينسكى

للأستاذ حمزة طاهر

— ١ —

بمناسبة ما كتب الأستاذ أحمد أمين بشأن تحليل أعمال ومؤلفات السيد عبد الرحمن الكواكبي وفكرة عقد المؤتمر الإسلامى التى تخيلها الكاتب واتجه إلى أن يجعل المؤتمرين يقترحون إنشاء جمعية دائمة تعنى بإصلاح المسلمين ، وأن يكون مركز الجمعية المؤقت هو مصر لتقدمها فى العلم والطرق ، ولأنها أنجح الأمم فى ذلك — أريد أن أذكر [illegible] من [illegible] أن يطبق [illegible] على الأمم الإسلامية بعد أن نجح فى تطبيقه على مسلمى روسيا إلى حد كبير ، واختار مصر مركزاً لمؤتمر إسلامى عام ، وهو المرحوم إسماعيل بك غاصبرينسكى صاحب جريدة الترجمان .

ولد إسماعيل بك عام ١٨٥١ فى شبه جزيرة القرم ، وتلقى العلوم الابتدائية فى مدينة باغچه سراى عاصمة القرم ومركز الحضارة التركية والحضارة الإسلامية ، ثم التحق بمدرسة الحربية الروسية بموسكو وظل بها حتى سنتها السادسة ، ولكنه لم يتمها وتركها ليلتحق متطوعاً بالجيش اليونانى الذى أرسل لإخماد ثورة جزيرة كريت التى نشبت سنة ١٨٦٧ ، ولم ينل مراده ، ولكنه لم يرجع إلى مدرسته ثانياً .

وأخذ إسماعيل بك يشتغل مدرساً للغة الروسية فى « مدرسة زنجيرلى » وهى أرقى المدارس الدينية بالقرم ، وبث آراءه الإصلاحية فى الطلبة ، وفى الوقت نفسه يواظب على الاستفادة من مكتبة غنية لعالم روسى يدعى « نوسشف » مدير البوليس بمدينة باغچه سراى ، فاطلع على الأدب الروسى ، والأفكار الروسية ، ووسع معلوماته الاجتماعية والاقتصادية بمطالعة مؤلفات كتاب الروس أمثال بلساروف وچيرنيشفسكى .

وفى عام ١٨٧٣ سافر إلى باريس وأقام بها سنتين يدرس الفرنسية والعلوم الاجتماعية . ولما عاد إلى إستانبول سنة ١٨٧٤ نشر كتابه المسمى « نظرة موازنة إلى مدنية أوربا » . وفى عام ١٨٧٨ انتخب رئيساً لبلدية باغچه سراى ، ولقد قص حياته التى عاشها فى هذا العهد على لسان دنيال بك الذى جعله بطلا لقصته المسماة « أشرقت الشمس » . ودنيال بك هذا هو إسماعيل

بك نفسه ، يقول : « لما أدرك دنيال بك عدم إمكان خدمة الأمة خدمة حقة بدون الاطلاع على أحوالها ، عزم على توسيع علمه ومعارفه ، فحضر أفراح القرويين ، ومجالس العلماء والدراويش ، وحفلات الأعيان والأمراء ، وحجرات المدارس الدينية ، وغيرها من المجتمعات ، وقضى نحو سنتين يسمع كثيراً ولا يتكلم إلا قليلاً ، ورأى الجهات الحسنة لكل طبقة من الناس ، وشاهد أحوالها السيئة ، وفهم نقطة الضعف وما تحتاج إليه الأمة » .

وفي هذا العهد نشر بإمضاء « كنيج ملا » المستعار في جريدة « تاوريدا » الروسية التي كانت تصدر في باغچه سراي ، أهم مؤلفاته وهو كتابه « مسلمو روسيا » ، وأصدر رسائل أخرى بعناوين مختلفة تضم آراءه التي طبقها طول حياته المستقبلة .

وفي عام ١٨٨٣ اقترن بزهرة هانم ابنة أسفنديار بك اقچورا صاحب مصانع النسيج بقازان ، وقد أعجبت به وبطالعة رسائله . ولم تكن زهرة هانم مثالا لزوجة صالحة فحسب ، بل كانت زميلة لزوجها في العمل وشريكة في الأمل ؛ لقد عاونته على إنشاء جريدة « الترجمان » التي استطاع الحصول على الرخصة بإصدارها بعد زواجه منها بنحو سنة . عاونته ببيع ما تملك من المجوهرات ، كما عاونته في تحضير الجريدة للطبع وكتابة عناوين المشتركين وإرسالها إلى أصحابها . كانت تربي أبناءها بنفسها وتعنى بشئون زوجها وراحته ، ومع ذلك لا تفارق (الترجمان) ، وفي الوقت نفسه تهتم بجميع معارفها تشاركهم في مسراتهم وتشاطرهم آلامهم مجتهدة في إدخال السرور في قلوب (؟) أزرها بكل ما أوتيت من قوة . وكان زواج إسماعيل بك من زهرة هانم من أسعد حوادث حياته ، ومقدمة حسنة لنجاحه في المستقبل .

* * *

وظلت (الترجمان) ، بفضل حيطة إسماعيل بك واحتياله في أشد الظروف القاسية ، تصدر بانتظام تام حتى سنة ١٩١٨ [illegible] إسماعيل بك [illegible] لمسلمي روسيا كلها من سنة ١٩٠٥ [illegible] ويقرؤها مسلمو القوقاز وقازان وسيبريا وتركستان وتركستان الصيني وبعض مسلمي الصين ، وتباع في إيران ومصر ، وينبعث منها ذكر وتقدير خاص . وكان إسماعيل بك يعطي في جريدته مكاناً ممتازاً للعالم الإسلامي ، وقد استخدمها من المقالة الأولى حتى صفحة الإعلانات فيما يظنه مفيداً للمسلمين والأتراك . وما كان يبلغه نبأ من أبعد بلاد المسلمين وأصغرها حتى ينشره في جريدته بكل عناية واهتمام .

عنى إسماعيل بك قبل كل شيء بتوحيد اللغة وتكوين الرأي العام ، واستعمل لذلك لغة أدبية سهلة يفهمها كل قارئ بدون مشقة ؛ وقد رأى نتيجة عمله هذا سنة ١٩٠٥ حين نال مسلمو روسيا قسطاً من الحرية ، إذ ظهر أكثر من ٣٥ جريدة ومجلة ، وكثير من الروايات والقصص إما بلغة (الترجمان) وإما بلغة قريبة منها . وقد ألف إسماعيل بك كتب المطالعة وأصول التدريس ، وطبع المصحف الشريف ، وكان لمصحفه ، في أحجامه الثلاثة شهرة في العالم الإسلامي ، ولا يزال مصحفه الصغير يبحث عنه إلى اليوم .

وكان من أهم المسائل عنده إصلاح المدارس الأولية ، وكان دستوره في ذلك : « إن انهزام أمة حاكمة واضمحلال أمة محكومة إنما ينشأ من عدم المدارس » . وأدرك هذا بالمقارنة بين المدارس الإسلامية والمدارس الروسية ، وآمن بوجوب إصلاح المدارس في عالم الترك والعالم الإسلامي جميعاً ، وأنشأ للوصول إلى غايته هذه مدرسة أولية نموذجية في باغچه سراي سنة ١٨٨٤ ، وكان الكتاب الذي يدرس فيها هو « خواجه صبيان » من تأليف إسماعيل بك ، وكان المدرس من تلاميذه ، ثم أنشأ مدرسة أخرى ليلية في أحد مقاهي سوق باغچه سراي ، وجمع عشرين صبياً من صبيان الحمالين والبقالين ودرس لهم بنفسه أربعين ليلة علمهم فيها القراءة والكتابة

سهولة.

إن الإصلاح والتجديد اللذين بدأ بهما إسماعيل بك غصبرينسكي في باغجه سراي سنة ١٨٨٤ قد بلغ سنة ١٩٠٥ بلاد كثيرة في تركستان الصين، فأنشئ، وأصلح نحو خمسة آلاف مدرسة بالأموال التي جاد بها الأتراك المتعطشون للثقافة والحياة المدنية.

لقد وجد أغنياء كرماء يديرون عشر مدارس أو خمس عشرة مدرسة، أمثال بني اقيوروا وبني ياماي وبني عبد المنان من القازانيين، كما وجد من يدير مائة ومائتين من المدارس على نفقتهم الخاصة أمثال زين العابدين تاغييف من مدينة باكو، وحسينوف من أورنبرج، والحاج عصمة الله من سيبيريا.

***

لما بلغ نجاح أعمال إسماعيل بك غصبرينسكي في مسلمي روسيا درجة تدعو إلى الرضى فكر في توسيع ساحة نشاطه حتى تشمل الأقطار الإسلامية الأخرى، ولم يجد في العالم الإسلامي مدينة يجعلها مركزاً لنشاطه أفضل من القاهرة التي كانت ملجأ للفاضلين وموئلاً للمفكرين الأحرار منذ العصور القديمة.

حضر إلى القاهرة سنة ١٩٠٧ ولم يكن نكرة في مصر، إذ كان المثقفون من المصريين يتتبعون جريدة (الترجمان) ويفهمون ما يرمي إليه صاحبها من صالح المسلمين؛ فلما حل بالقاهرة استقبله الكتاب والأدباء وأرباب النفوذ في ذلك العهد بالترحيب والإجلال، ووجد فيهم أصدقاء مشاركين له في آرائه وأعماله الإصلاحية. وكان إسماعيل بك يرى أن أمضى وسيلة للوصول إلى الغاية المنشودة من إصلاح حال المسلمين هو عقد مؤتمر عام للمسلمين يجتمع فيه المسلمون من جميع الأقطار الإسلامية ليبسطوا للمؤتمر أحوال بلادهم فتبحث فيه أدواؤهم السيئة الأثر وانحطاطهم والأدوية الشافية من هذه الأدواء، وكان يعتقد أن وراء [illegible] من الجهل [illegible] بالتعصب [illegible] تعرف في القاهرة [illegible] والكتاب، وأعضاء الحزب الوطني، وقابل الخديوي عباس حلمي باشا والغازي أحمد مختار باشا المندوب السامي للدولة العثمانية؛ واجتمع بسفراء روسيا وفرنسا والمعتمد البريطاني. ودار بينه وبين المعتمد البريطاني في شأن المؤتمر الإسلامي هذا الحديث: قال المعتمد البريطاني: «إني واثق بوعدكم بأن المؤتمر الذي تعتزمون عقده لا يتدخل في المسائل السياسية، ولكن ألا يجوز أن يتحول فيما بعد إلى مؤتمر سياسي؟».

قال إسماعيل بك: «إي يا سيدي، من الممكن أن تخرج المؤتمرات الإسلامية التي سوف تعقد فيما بعد عن الطريق التي تقرر السير عليها اليوم، وقد لا تخرج عنها، فليس لخادمكم علم بذلك؛ فلست ضامن الأزمنة المستقبلة وليس ذلك في طاقتي، والذي أتحدث عنه خاص بالمؤتمر الأول فقط؛ وبما أنه لا يمكن الدعوة إلى عقد مؤتمر في المستقبل بدون إذن الحكومة، كما هو اليوم، فإني لا أخشى حدوث أمر ضار». فوافق المعتمد البريطاني على ما قاله إسماعيل بك وصرح بأن الحكومة البريطانية لا تمنع من انعقاد المؤتمر.

وعلى هذا دعا الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد، نحو ستة آلاف من علماء المصريين ووزراء مصر من الأعيان للاجتماع في فندق كونتيننتال مساء يوم الجمعة ٢٥ رمضان سنة ١٣٢٥ (أول نوفمبر سنة ١٩٠٧) فألقى فيه إسماعيل بك خطبة يدعو فيها المسلمين إلى عقد مؤتمر إسلامي عام.

(يتبع) حمزة طاهر

الطابور الخامس
فى الدولة الطولونية

للأستاذ ابراهيم أحمد العدوى

لعبت الأيدى الخفية دوراً هاماً فى جعل عمر الدولة الطولونية قصيراً كأنفاس الصيف ، وكانت عاملا إيجابياً ساعد عجلة الزمان على أن تطويها بسرعة . إذ يعجب الإنسان حقاً حين دراسة الدولة الطولونية أن يجدها تلمع فى سماء تاريخ مصر كلمح البصر بالنسبة إلى غيرها من الدول التى عمرت كثيراً فى حكم البلاد .

لقد علمنا التاريخ أن مؤسس الدولة يحتاج إلى سلسلة من الخلفاء ذوى المواهب الذين يحيطون [illegible] ومعاونين حتى يتم وضع أساس الدولة وقيام صرحها وصرحها . حينئذ لا تؤثر فيها أحداث الزمان وتكون لها القدرة على صنع مصيرها بصبغتها الخاصة .

فإذا أردنا أن نطبق تلك القاعدة على الدولة الطولونية نجد أن مؤسسها الأول قد نكب فى ولى عهده نكبة شائنة لم يكن له عليها من سلطان ، إنما كانت عاملا إيجابياً ساعد على القضاء على دولته وهى فى دور الرضاع . ولهذا يعد موضوع العباس بن أحمد بن طولون وخروجه على أبيه حادثاً فذاً فى ثنايا التاريخ ، يحتاج إلى تدقيق عميق حتى يكشف عن غامضه ويظهر سبب التقاطع بين أبيه فى عز السلطان وابن مترف ينعم بما عند أبيه من جاه واسع وملك عريض ... وهذا هو موضوع المقال .

• • •

استقل أحمد بن طولون بتدبير أمور مصر بعد أن تغلب على صعاب جمة . غير أن واليه [illegible] أحمد بجهده [illegible] حتى نجح فى [illegible] التوفيق بين الأسر الحاكمة . [illegible] كان الموفق [illegible] فى الدولة العباسية فى عهد الخليفة المعتمد — عدواً لدوداً لأحمد بن طولون ، يتحرق غيظاً كلما رآه متقلداً زمام البلاد المصرية ، فأخذ يبذل جاهداً فى إبعاده عن تلك الإمرة الهادئة ، بأن أفرغ ما فى جعبته من حيل . غير أن الفشل لازمه ليقظة ابن طولون . حينئذ عمد الموفق إلى استخدام سلاح خطير هو السم الزعاف والدسيسة القاتلة التى إن تمكنت من الجسم لم تدعه إلا بالفناء ، تلك الأداة التى كانت هى ما يسمى فى الأسلوب الحربى الحديث « الطابور الخامس » .

أطلق الموفق جواسيسه على البلاد المصرية تلتقط أخبارها وتبث روح العصيان بين عظماء البلاد وقادة أمورها ، هذا إلى أن تهجم جنودها لتهاجم مواطن الضعف فيها . غير أن الفرص ساعدت أحمد بن طولون على اكتشاف ذلك السلاح السرى ، ولكن هيهات أن يقف على أسراره كله !! ويظهر لنا من القصص الآتية أن الموفق قد نجح فى حركته وانتشرت فى البلاد حتى أينعت ، بأن وجد وكلاء الموفق من العباس بن أحمد بن طولون مرعى خصيباً بثت فيه جهودهم . . .

أرسل الموفق أحد الخدم ويدعى (نحريرا) إلى أحمد بن طولون يطالب منه أموالا يستعين بها فى أزمة من الأزمات . غير أن الخليفة العباسى المعتمد كتب سراً إلى ابن طولون يخبره أن الموفق هو الذى حرك (نحريراً) على الحضور إلى مصر ليكون عيناً ، وأنه يحمل كتباً إلى سائر قواده يحضهم على الخروج من طاعته . تريث ابن طولون حتى يقف على رد من أرسل إليهم الكتب ، ثم تحايل بعد ذلك على (نحرير) حتى أخذ منه الكتب والردود . حينئذ رأى أن بعض أتباعه قد أجاب دعوة الموفق ومنهم أحمد بن عيسى الصعيدى — وكان والى برقة — وآخر يدعى بدراً الحقيق ، فعاقب ابن طولون (بدراً) بأن قتله وضرب أحمد الصعيدى بالأغاثة سوط . وإلى

جانب هذه القصة نرى قصصاً كثيرة تموج بها المراجع تدلنا على ذكاء أحمد ابن طولون في اكتشاف أعداد هائلة من الجواسيس. غير أن أهمهم من تلك القصص أن كثرة الأرصاد تدل على تبعثر آخرين في أنحاء البلاد من الصعب الاهتداء إليهم: من ذلك تلك القصة التي رواها لنا البلوي، وهي أن أحمد ابن طولون رأى يوماً في أثناء سيره في أحد الأسواق شيخاً يحملق في شخصه فاستدعاه وسأله عن أمره فتلعثم الرجل وأجاب أنه موفد من قبل الموفق ليلتقط أخباره، وأضاف إلى ذلك قوله: « ولست وحدي المكلف بتلك المهمة بل هي آخرون قد انتشروا بدورهم في أرجاء البلاد.

وذلك النفر الخفي من الجواسيس هم الأشد خطراً وهم وحدهم الذين نجحوا في اجتذاب العباس إلى جانبهم. وإن تحليلنا لشخصية جعفر بن حضار الكاتب الذي لعب الدور الأول والأهم في ثورة العباس يثبت لنا جلياً انضمام جعفر إلى ذلك النوع من الجواسيس. فلقد كان ذلك الرجل من خواص ابن طولون المقربين، هذا إلى أنه كان أديباً بليغاً وشاعراً يفيض شعره جمالاً وروعة في مواطن الحماسة. غير أنه استغل تلك المواهب فأخذ ينظم القصائد لحث العباس على الخروج على أبيه من غير إثم قدمه له أحمد بن طولون. من هذا نرى أن جعفراً[1] كان ولا بد أحد أفراد الطابور الخامس.

وإذا أردنا زيادة في الإيضاح عن وجود تيارات خفية كان لها دور خطير في ثورة العباس، ينبغي أن نلقي نظرة على الكتب التي أرسلها أحمد بن طولون إلى ابنه أثناء خروجه إلى برقة. إن تحليلنا لتلك المراسلات تأتي لنا بالأمر جلياً، فيقول أحمد بن طولون في أحد كتبه: « وليت شعري على من تهول بالجنود ... ومن هؤلاء المتخرصون لك والباذلون دماءهم وأموالهم وأديانهم دونك ... فإن كان يدعوهم إلى نصرك وصحبتك، [illegible] من [illegible] ».

وإنه لجدير حقاً أن يتعجب أحمد ابن طولون من تلك الفئة التي تخرج من حياض العباس من غير أمل يرجونه منه أو مال يحصلون عليه.

يتضح لنا مما سبق أن الموفق نجح في نشر عيونه بين كبار ولاة الأمور في مصر الذين أخذوا على عاتقهم مهمة القضاء على أحمد بن طولون.

* * *

إلى جانب ذلك العامل الموجب كان يوجد عامل سلبي، ألا وهو شخصية العباس التي اتخذه وكلاء الموفق محوراً تدور عليه أعمالهم ضد أحمد بن طولون. وإن نظرة إلى أخلاق العباس تعطينا صورة صادقة من نقص في شخصيته، فلقد كان شاباً مستهتراً لا يأبه بتقاليد ولا يقيم للمصالح وزناً. هذا إلى أنه يهتم بتوافه الأشياء. فلقد روى لنا البلوي قصة من تأديب أحمد بن طولون لابنه (العباس) إذ استدعاه يوماً إلى حضرته ليتناول معه طعام الغداء، وسرعان ما حضرت المائدة وعليها « سماق زرباجا »[1] فانهمك عليها العباس لفرطه في الجوع، على حين انتظر والده حتى تيقن من أنه قد شبع، وأمر بنقل الطعام وإحضار لون آخر كان يحتوي على طعام فاخر من دجاج... الخ. وأقبل أحمد بن طولون على الطعام ووضع أمام ابنه، لكن الأخير لا يستطيع أن يقذف إلى جوفه بأية لقمة حيث الشبع كان قد أخذ منه مأخذه. حينئذ التفت إليه والده وقال له: « إني أردت تأديبك في يومك هذا بما امتحنتك به، لا تلق همتك على صغار الأمور بأن تسهل على نفسك تناول يسيرها فيمنعك ذلك من كبارها.

(١) سيأتي على تفصيل الدور الذي قام به جعفر في العدد التالي.

(١) الزرباج — كلمة فارسية معناها طبق كمود أو نوع من الطعام مؤلف من سكر ولوز.

تدلنا تلك القصة على قصر نظر العباس . ولقد تجلى ذلك الخلق في إعطائه أذناً صاغية إلى الوشاة الذين زينوا له الخروج على والده وضربوا له على الوتر الحساس عنده ؛ فقد كان شاباً طائشاً مغروراً كثير الاعتداد بنفسه يعتقد أنه عظيم فوق المعتاد ، وكان مجنوناً بعظمته الشخصية بدليل قوله :

لله درّي إذ أعـــدو على فرسي
إلى الهياج ونار الحرب تستعر
وفي يدي صارم أفري الرءوس به
في حده الموت لا يبقي ولا يذر
إن كنت سائلة عني وعن خبري
فها أنا الليث والصمصامة الذكر
يدعون لا أني والعباس يقدمهم
كأنهم حمرٌ والليث مُفترس

إلى جانب هـــذا توجد قاعدة تاريخية أثبتها لنا التاريخ بأمثلة عديدة ، ألا وهي : حديثو النعمة يتعطشون دائماً للوصول إلى أهدافهم وآمالهم باستباق الحوادث . وذلك أنهم لا يطيقون رؤية آبائهم مؤسسي الدول في ظل العروش طويلاً ، بل يعملون على التخلص منهم سريعاً للتمتع بذلك الحلم الذي يتراقص أمام أعينهم . ومن ثم يكونون صيداً سهلاً أمام الأعداء . ولقد وقع العباس بخروجه على أبيه من ذلك النوع الذي يستسلم لأحلامه الحلوة . وليس أدل على هذا من أنه ركب رأسه وأخذ يسبح في عالم الخيال ليؤسس إمبراطورية شاسعة الأرجاء في أفريقيا ثم يهاجم مصر ليخلصها من يدي والده ويضمها إلى ممتلكاته .

أما السبب المباشر الذي دعا العباس إلى ترك الديار المصرية فهو الوشايات التي لعبت دورها بينه وبين محمد الواسطي ، فلقد كان الأخير وزير أحمد بن طولون ومستشار العباس في مصر أثناء قيام ابن طولون بفتح بلاد الشام . غير أن العلاقات سرعان ما ساءت بين العباس ومستشاره ، حينما أحاط بالعباس ثلة من المفسدين والمستهترين الذين أغروه على التمادي في الضلال وطرد كبار الموظفين وتعيينهم في تلك المناصب الهامة . ولقد حاول الواسطي مراراً أن يتصل بمستشار العباس [illegible] الحالة إلى أحمد بن طولون . ولقد رد أحمد بن طولون على مراسلات الواسطي بأمره باستعمال اللين مع العباس وأن يتريث حتى يعود إلى البلاد ويفحص الأمور بنفسه . ولكن الأمور لم تسر سيرها الطبيعي . فلقد كان في حاشية أحمد بن طولون شخص يدعى محبوب ابن رجاء وكان معادياً للواسطي ، ولهذا أقدم على عمل كان له أبعد الأثر في ثورة العباس وهو إرسال الكتب التي كان يبعث بها محمد الواسطي إلى ابن طولون والكتب التي كان يرد بها الأخير على مستشار العباس بن أحمد بن طولون . فلما اطلع العباس على تلك الرسائل ووقف على رأي والده أوجس خيفة من مغبة الانتظار ، فهو يعرف جيداً أخلاق والده وإنزاله أشد العقوبات على من يجترئ على إحداث شيء يعرقل تسيير دفة الحكومة ، لا يفرق في ذلك بين الأقرباء والأعوان .

لذا استعد العباس لمغادرة البلاد والذهاب إلى برقة قبل أن يدهمه خطر والده .

إبراهيم أحمد العدوي

المُصلّى

بقلم ميخائيل عواد

تمهيد

يصيب المطالع في الكتب القديمة طائفة كبيرة من الألفاظ العربية والدخيلة مما لا أثر له في الأسفار اللغوية ، ولولا أن كتب البلدان والتاريخ والأدب تناقلتها في مطاويها لكان أمرها نسياً منسياً .

ومن بين هذه المستدركات لفظة « المُصلّى » وهي هنا قطعة صغيرة الحجم لا يزيد طولها عادة عن متر ونصف ولا عرضها عن متر واحد ، تتخذ من قماش أو فرش أو حصير ، يصلى عليها ، ويطلق عليها أحياناً اسم « سجادة » وهي الخمرة المسجود عليها . ويمكن للمصلي أن يحمل معه مصلاه أينما شاء . وجاء المصلى أيضاً بمعنى موضع الصلاة ، وأمره معروف مشهور لا تعرض لنا منه هنا .

وكنت أثناء مطالعاتي ، وقفت على غير خبر في ذكر المصلى بمعنى السجادة ونحوها ، وها أنذا أذكرها بحسب قدم رواتها :

فقد قال الطبري (المتوفى سنة ٣١٠ للهجرة) في معرض كلامه على رأس الخليفة الأمين حين قتلـه في سنة ١٩٨ هـ : « ... وأقبل طاهر (بن الحسين) يقول : رأس المخلوع محمد » . . . قال : وبعث طاهر برأس محمد إلى المأمون مع البردة والقضيب والمصلى ، وهو من سعف مبطن ... »

وجاء ذكر المصلى في قصة طريفة أوردها إبراهيم بن محمد البيهقي (الذي نبغ في خلافة المعتصم بالله) في معرض كلامه على محاسن النظر في المظالم ، قال : « ... ثم دعا الأفشين فقال له [illegible] أقول أن تدعو بخصمي أمير المؤمنين ، فنادى المنادي ، فإذا المأمون قد خرج في رداء وقميص وسراويل قد أرسلها على عقبيه في نعل رقيق ومعه غلام يحمل مصلى حتى وقف على يحيى وهو جالس ، فقال له : اجلس ، فطرح المصلى ليقعد عليه ، فقال له يحيى : يا أمير المؤمنين لا تأخذ على خصمك شرف المجلس ، فطرح له مصلى آخر فجلس عليه ، وقال له يحيى : ما تقول ... »

وروى محمد بن عبدوس الجهشياري (المتوفى سنة ٣٣١ هـ) قصة جرت بين جعفر البرمكي وبين الأصمعي ، وفيها ذكر للمصلى قال : « ... فقال له جعفر : ويلك ! قد وصلنا هذا بخمسمائة ألف درهم ، ولم أدخل له بيتاً قبل هذه الدفعة ، ورأيت حشيشة مكسورة ؟ وعليه تُونكان متجرد وتحته مُصلّى وسخ ... »

وقال في موطن آخر يذكر المصلى : « ... نقل الفضل بن يحيى (البرمكي) من مجلسه إلى محبس ، فأصاب في شيء مصلاه رقعة فيها ... »

ومن طريف ما ذكره المسعودي (المتوفى سنة ٣٤٦ هـ) بشأن المصلى ما جاء في أخبار المنتصر بالله الخليفة العباسي . قال : « كان الموضع الذي قتل فيه المتوكل هو الموضع الذي قتل فيه شيرويه أباه كسرى ابرويز ، وكان الموضع يعرف بالماحوزة ، وكان مقام المنتصر بعد أبيه في الماحوزة سبعة أيام ثم انتقل عنه وأمر بتخريب ذلك الموضع . ويحكى عن أبي العباس محمد بن سهل قال : كنت أكتب لعتاب بن عتاب على ديوان جيش الشاكرية في خلافة المنتصر ، فدخلت إلى بعض الأروقة فإذا هو مفروش ببساط سوسنجرد ومسند ومصلى ووسائد بالحمرة والزرقة ، وحول البساط دارات فيها أشخاص ناس وكتابة بالفارسية ، وكنت أحسن القراءة بالفارسية ، وإذا عن يمين المصلى صورة ملك وعلى رأسه تاج كأنه ينطق ، فقرأت الكتابة فإذا هي صورة شيرويه القاتل لأبيه أبرويز الملك ، ملك ستة أشهر ، ثم رأيت صور ملوك شتى ، ثم انتهى بي النظر إلى

صورة عن يسار المصلى عليها مكتوب (صورة يزيد بن الوليد بن عبد الملك قال ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبدالملك ملك ستة أشهر) ، فعجبت من ذلك واتفاقه من عين مقصد التعصير ومن تماله . . . »

وورد ذكر المصليات في أخبار القضاة . فمن غريب ما يحكى في هذا الشأن أن ابراهيم بن الجراح ولي قضاء مصر في سنة ٢٠٥ للهجرة ، فكانت حاله في أول الأمر حسنة ، ولم يكن بالقاضي المذموم ، حتى قدم عليه ابنه من العراق فتغيرت حاله وفسدت أحكامه وأخذ الرشا من الناس . قال أبو عمر الكندي (المتوفى سنة ٣٥٠ هـ) « حدثنا محمد بن يوسف ، قال : حدثني ابن قديد ، قال : حدثنا يحيى بن عثمان قال : ولي السري (بن الحكم) ابراهيم ابن الجراح ، فأمر بمصلاه فوضع في المسجد الجامع ، واجتمع المصريون فالقوه في الطريق . فما تكلم فيه السري بشيء ، وجلس ابراهيم بن الجراح للحكم في منزله ، فلم يعد إلى المسجد الجامع حتى صرف »

أما البلدانيون فقد أكثروا من ذكرهم للمصليات في معرض كلامهم عن ارتفاع المدن الإسلامية . فهذا البشاري (الذي نبغ في سنة ٣٧٥ هـ) ذكر لنا ما يرتفع من غير بلد إسلامي قال :

« ... ويرتفع من قوهستان (في اقليم باب خراسان) : ثياب تشابه النيسابورية بيض ، وبسط ومصليات حسنة ... »

« ... ويرتفع من بخارا : الثياب الرخوة والمصليات والبسط وثياب الفرش »

« ... ومن ربنجن : أزر الشتاء من اللبود الحمر ومصليات ... »

« ... ومن الشاش سروج الكيمخت الرفيعة والجعاب والأخبية وجلود تجلب من الترك وتدبغ ، والأرز والمصليات والمبرقات ... »

وهذه الأخبار وأمثالها يرويها الرحالة ابن حوقل وابن الفقيه الهمذاني والمقدسي والاصطخري [illegible] البلدان .

وذكر القاضي المحسن التنوخي (المتوفى سنة ٣٨٤ هـ) رواية جاء فيها : « ... ثم رفع (عمر بن فرج الرخجي) مصلاه ، وأخرج الكتب بولاية فلسطين وأمرني بكتمان أمري ... »

ويحكي في رواية أخرى قال فيها : « ... وصرت إلى المأمون يوم الموكب فأدخلت فسلمت ، فأوقفت مع القضاة ، وأخرج إلي عهداً من تحت مصلاه وسلمه إلي وقال ... »

ومن شعراء المائة الثالثة للهجرة أبو الهيثم خالد بن يزيد الكاتب ، اشتهر برقة الشعر وعذوبته ، وذكر له الشابشتي (المتوفى سنة ٣٨٨ هـ) قصة طريفة فيها ذكر المصلى قال : « قال جحظة : حدثني خالد الكاتب ، قال : لم أشعر إلا ورسول إبراهيم بن المهدي قد وافى . فدخلت إليه ، فإذا رجل أسود مشعراني قد غاص في الفرش فاستجلسني فجلست . فقال : أنشدني شيئاً من شعرك . فأنشدته :

رأت منه عيني منظرين كما رأت
من البدر والشمس المضيئة بالأرض
عشية حياني بورد كأنه
خدود أضيفت بعضهن إلى بعض
وناولني كأساً كأن رضابها
دموعي لما صد عن مقلتي غمضي
وولى ، وفعل السكر في حركاته
من الراح فعل الريح بالغصن الغض

فزحف حتى صار في ثلثي المصلى ، ثم قال : يا بني ، شبه الناس الخدود بالورد ، وشبهت أنت الورد بالخدود ، زدني ، فأنشدته :

عاتبت نفسي في هوا
ك فلم أجدها تقبل
وأجبت داعيها إليـ
ـك ولم أطع من يعذل
لا والذي جعل الوجو
ه لحسن وجهك تمثل
لا قلت إن الصبر عنـ
ـك من التصابي أجمل

فزحف حتى صار خارج المصلى ، ثم قال : زدني ، فأنشدته :

عش فحبيك سريعاً قاتلي
والضنا إن لم تصلني واصلي

طفـــر الحُبّ بقلب دنف

بك والسُّـــقم بجسم ناحل

وبكى العاذل لي من رحمتي

فبـــكائي لبـــكاء العاذل

فصاح ، وقال : يا بلبل ، كم في صلك من العين ؟ قال مئتان وخمسون ديناراً . قال : اقسمها بيني وبينه ، واجعل الكسر كاملاً للغلام .

وذكر التنائي للصلى في رواية أخرى ، قال : « . . . واتصل الخبر بطاهر فكتب إلى عبدالله يعذله ويؤنبه ويقول : لو ورد الخبر بوفاتك كان أسهل علي من وروده بفضيحتك ، وأن يبلغ بك التبذير مبلغاً لا تحسن معه احتراق موضع أنت فيه ، ويأمره بالتجهز والخروج إليه . فأقلق عبدالله ذلك وكتمه جميع الناس ، وطوى الكتاب وجعله تحت مصلاه ولم يعلم عليه ، فسأله المأمون عن خبره . . . » .

وفي موطن آخر من « الفرج » روى قصة طويلة جرت بين ابن أبي الأصبغ وبين يحيى بن زياد ، ذكر فيها المصلى بقوله : « . . . فلما فرغ أعطاه أربعين ديناراً كانت تحت مصلاه فأخذها . . . » .

• • •

وحكى مسكويه (المتوفى سنة ٤٢١هـ) في جملة أحداث سنة ٢٩٧هـ أن « فيما أدخل طاهر ويعقوب ابنا محمد بن عمرو بن الليث بغداد أسيرين ، وما بين يدي أبي الفضل عبد الرحمن ابن جعفر الشيرازي كاتب سبكرى الغلام فارس . . . وترك عبدالرحمن في المطبق وأنزل في دار مؤنس الخادم مصلى . . . » .

وصريحة الحربي هذه تنسب إلى « صالح الحربي وهو من أولاد ملوك خراسان من أهل بلخ ، وكان يسمى (صاحب المصلى) ، لأن المنصور كان وهبه مصلى الصلاة أخذه من خزائن عبد الله بن علي ، بشرط أن يحمله في الأعياد حتى يصلي عليه » .

• • •

وقد اتفق [illegible] لقب (صاحب المصلى) [illegible] ابن الجوزي في وفيات سنة ٣٣٦هـ بقوله : « محمد بن جعفر بن الحسن بن سليمان بن علي بن صالح صاحب المصلى ، يكنى أبا الفرج ، حدث عن الهيثم بن خلف الدوري والباغندي وخلق كثير . . . » .

ومما ذكره ابن الساعي (المتوفى سنة ٦٧٤هـ) في أخبار سنة ٦٠٣هـ ، قوله : « . . . فسطوا على شهاب الدين ، وهو في الخركاه فضربوه بالسكاكين اثنتين وعشرين ضربة ، فدخل عليه أصحابه فوجدوه على مصلاه قتيلاً وهو ساجد » .

(يتبع)

ميخائيل عواد

الأدب وبرج العاج

أما أن الأدب صورة الحياة فذلك حق لا ريب فيه . وأما أن أول رسالة الأديب إمعان النظر في ملامح الحياة وأسرارها ثم نقل صورتها دون تحريف ما فذلك أيضاً حق لا يخالجنا فيه ريب . ولكن الريب — عندي — في غير هذا كله :

أنا أرتاب في أن الأدب يجب أن يعيش في ركب الرعاع ؛ أو من في مستواهم فكراً وذوقاً ؛ والرعاع — بحق — هم أقرب الناس إلى قلوب الأدباء ، وهم أحق برعايتهم والتعبير عن أحاسيسهم والتفكير في شؤون حياتهم ؛ ولكن ذلك لا يعني ابتذال الأدب حتى يتوقه الرعاع بذوقهم ، وأنا أعلم وأقول : لو انتهى الأدب إلى هذا المستوى لما الرعاع أنفسهم ولما نال من مشاعرهم هزة أو ارتياحاً ، ففي قراءة الحس الأصيل هزة خفية هي هزة الحاسة الفنية ، بها يتذوق الناس جمال الفنون ، وحظ كل واحد من هذا التذوق على قدر حظه من الإدراك والمرونة ، والثقافة الفنية ؛ فإذا خلا الأدب — وهو فن — من جمال في الفكرة والعبارة ، والالتفاتة ، والنغمة ؛ أنكرته الحاسة الفنية ، وكان — بعد ذلك — كلاماً من الكلام لا فناً من الفن ، وخسر الرعاع أنفسهم أثره المنشود . (بغداد) ع . م

بين المسموع والمقروء

الشعوب مجامع اللغات

الدكتور أحمد زكي بك

المجمع اللغوي المصري مجمع أنشئ إنشاءً لضبط اللغة العربية. وقد علم الناس كيف جرى المجمع ويجري في ضبطها.

واللغة العربية لغة قديمة تحاول العيش في دهر حديث. والمجمع اللغوي المصري يريد لها مع هذا أن تظل تستمد الحياة من جذور لها ضربت في ماض بعيد عتيق — ماض كريم عظيم — وأن تستمد من هذا الحاضر وحده الحياة.

ولقد قرأت بالأمس لكاتب إنجليزي كبير يصف كيف تجري اللغة الإنجليزية، وهي أكثر لغات الحاضر ألسنة ناطقة، في سبيل تطورها من جيل إلى جيل. والإنجليز يرسلون ألسنتهم من غير مجمع ضابط، كما يرسلون قوانينهم من غير تشريع زائد، فهم في التشريع يعتمدون في الأكثر على منطق القضاة، وهم في اللغة يعتمدون على ملكة الشعب وعلى سليقته، فالشعب هو مجمع ألسنتهم، وضابط كلامهم.

قال الكاتب الكبير: إن اللغة الإنجليزية في حاجة قائمة دائمة إلى التجديد — في حاجة إلى كلمات جديدة لأشياء جديدة ومعان جديدة. وأهل اللغة المتحضرون (من الإنجليز طبعا) يرجون دائما أن يعملوا على تغذيتها، فيشتقون من اللاتينية والإغريقية، ليثأروا منها كما ثأرت هذه اللغات منهم، ولكن الشعب يأبى لهم اشتقاقا، ويأبى هذه الرغبة الجامحة فيهم إشباعها.

إن الشعب ينزع إلى البساطة. [illegible] [illegible] تهذيبه وتشذيبه، ويقطع الزائد منه حتى يخرج مصقولا سائغا.

ومن أمثلة ذلك أن العربة كانت تقودها الجياد، فلما اخترعت العربة التي يقودها محرك يتحرك بالزيت، أراد المتحضرون على تسميتها بالأوتوموبيل automobile، فرفض الشعب هذا الاسم الطويل، فلا تسمعه اليوم ينطق في إنجلترا، إلا إذا ذكرنا اسم النادي الذي يجمع أصحاب هذه العربات، فهم يسمونه نادي الأوتوموبيلات automobile Club. أما العربة ذاتها فقد أسموها عربة الموتور motor car، ثم وجدوا هذا الاسم على قصره طويلا، فأسموها عربة فحسب car.

وهنا نذكر نحن المصريين بما أصابت هذه الكلمة بيننا من نجاح أو إخفاق. وهو إخفاق محقق، فإنك لا تكاد تراها على الورق، وإنك لا تكاد تسمعها على الألسن. أما لسان الفلاحين، ولسان الشعب، فقد حور منها ودوّر حتى تتفق مع منطقه، فقال الأطرمبيل، وقال الطرمبيل، وقال الطمبيل، وقال الطنبيل. فاللسان المصري، كاللسان الإنجليزي، يكره المعقد ويميل إلى البساطة. ورحم الله من رحم منطقنا من أول الأمر، فاخترع لفظة سيارة، فكانت على قصور معناها، أسبق إلى ألسنتنا لسهولة مبناها. وفي هذا عظة لأهل اللغة عظيمة.

واخترع المخترعون آلة تلقي بالصور على ستار أبيض، فأسموها عند مولدها لفظا طويلا هو كينماتوغراف Kinematograph. ووقفت هذه الكلمة في حلوق الشعب، فما أسرع ما اختصرها اختصاراً، ثم قلب الكاف سينا تخفيفا وتليينا، فقال سينما Cinema.

وكذلك فعل المصري فقال سينما. وزاد المصري الفلاح، وهو أصدق طبيعة، فقال سيما. والمتعالمون المتعجرفون إذا سمعوا «السيما» ابتسموا من علٍ رحمة بجهل قائلها، وما هي إلا

الطبيعة تخلق ، والحياة الصادقة تقول .

واخترعوا الزبدة بديلاً من شحوم وزيوت ، وأسموه مرجرين Margarine وهي لفظة إغريقية معناها اللؤلؤ ، ذلك أن هذا الزبد الصناعي ، في دور من أدوار صناعته ، يخرج قطعاً صغيرة مستديرة بيضاء كاللؤلؤ . فبدأ الشعب الانجليزي باستقبال الجيم المصرية فيها ، فنطقها فصارت مرجرين . ثم هو من بعد ذلك استثقلها ، فقصرها ، فصارت مرج .

وأسمى أنصار الأغريقية كتاباً ترسله بالكهرباء على الأسلاك تلغرافاً ، بل تلجرافاً . فاستثقلها الشعب البريطاني ، فإذا به يستعيض منها بكلمة سلك wire ، فيقول أرسل له سلكاً ، أي كتاباً في السلك بالكهرباء .

والتلفون Telephone أيضاً قد استثقله اللسان الانجليزي العام فاختزله فصار فوناً phone . واشتقوا منه فعلاً phone لو أنك رجعته إلى العربية لكان فأن يفون فوناً . فتقول فانى وفنته وسأفونك وفونى . وهي كلمة سهلة حتى على اللسان العربي . وقد كنت اقترحتها قديماً على أحد أولئك المترمتين فمصمصت شفتاه ، وعلا وانحط ذقنه ، إيذاناً بالرفض . فذكرت له أن أصحاب هذه الكلمة من الانجليز هكذا يسمون هذه الآلة ، وهكذا يشتقون ، فأمدت شفتاه تقاصراً ، وذقنه ثبت في المستوى الذي أراده الله ، وكاد الرفض أن يكون قبولاً ، لولا خشية أن يكون التقلب سريعاً ، فصدقني هذا ، أن هذا الرجل المتزمت في ثلثيه ، وقد طال ما استعبده القديم الفاخر ، لا زال فيه بقية يستعبدها الحديث الباهر .

والسيارة بعد شيوعها صارت إلى الإيجار ، يستأجرها في الشارع من يشاء . فأسماها الانجليز أول ما أسموا ، Taximeter motor-cab ، أعنى عربة موتورية تكسيمترية . والتكسيمتر معناها مقياس الأجر أو مقياس الجعل . فما أسرع ما اختصرها اللسان الانجليزي ، لسان العامة التي تجرى عليها ، فصارت تكسي Taxi ملقى عربة الأجر ، وذهب منها أخص ما فيها ، وهو المقياس . [illegible] ذهب منها كل خصائص العربة إلا هذا الذى تدفعه لركوبك فيها — ذهب عنها معنى العربة !! وهنا يقوم ويقعد المتنطقون المتفيهقون من أصحابنا لو أن لهم في هذا رأياً ، أو كان لهم في هذا سلطان : كيف تجرد الشجرة هكذا من أوراقها وأغصانها ، وحتى من جذعها وجذورها ، ثم لا يبقى فيها إلا قطعة من لحائها تطلق على مفهوم الشجرة كلها ، وكيف يكتفى " بالتكسى " للدلالة على مفهوم هذه العربة بما فيها من عجلات ومقاعد ومحرك ، ثم من أجر تقيسه آلة ؟!

والجواب : أنه هكذا شاء منطق الألسنة ، منطق مجامع اللغات ، مجامع الشعوب .

ويجرى اللسان المصري مجرى اللسان الانجليزي ، فأسمى هذه العربة " تكسى " ، ولدى بها أعضاء المجمع اللغوى أنفسهم وهم خارج حيطانه . فما ضرهم لو أنهم أخذوا هذه الكلمة الشاردة في شوارع القاهرة أخذ الشريد الطريد ، فأستضافوها يوماً أو يومين في حجرة من حجرات المجمع الدافئة ، فكسوها وحلوها ، وحتى تخرج إلى الشارع من جديد في طراز من الأطرزة التي ترضاها اللغة ، وتركوها في سير ألسن الأحياء . كأن تكون تكسية مثلاً .

إن الأمثلة في الانجليزية كثيرة متعددة . وهي كلها تؤكد سلطان الشعوب الحية على لغاتها الحية ، تباشره في غير خصومة أو جلبة ، كما تباشر سلطانها السياسي في مجالسها النيابية في غير خصام أو مشاكسة .

بل قل من يدرى إن هذا التحرر اللغوى ، كان نتيجة لهذا التحرر السياسي .

في القرن الثامن عشر كانت الدولة الانجليزية دولة أرستقراطية . وكذلك كانت لغتها . وكان الشعب الانجليزي تغلب فيه الأمية . فكان الكاتب إذا كتب ، كتب لنفر القليل من الرجال . وكان التعلم أكثر عدده من الإغريقية واللاتينية . فكان إذا كتب الكاتب أو خطب الخاطب ،

حتمٌ عليه أن يقتبس من هذه ومن تلك اقتباسة تزين خطابه أو كتابه، وترفع من قدره إلى أقدار الفصحاء والفقهاء.

حتى علماء الطبيعيات والكيمياويون كان عليهم أن يصطنعوا ما يصطنعون من كلمات، من الإغريقية أو اللاتينية حتى لا يتهمهم بالجهل داعٍ، ولا يرميهم أحدٌ بأنهم لم يحظوا من التعليم الأرستقراطي، تعليم المدارس الراقية والجامعة، بالحظ الوافر.

وتغير كل هذا بتغير الأوضاع السياسية، وبانتشار الديمقراطية، وبتقلص اللاتينية والإغريقية. ومالت اللغة الإنجليزية من بعد ذلك إلى القصير من الألفاظ، والبسيط من التعابير. ومن أجل هذا صارت أشيع اللغات.

والفرق شاسع بين البسيط والتبذل، وبين القصير والنثر، وبين الفخام الذي يمتن ويمط الحياة، والقطع الذي يقطع حبل الحياة. وهو هكذا في اللغة أيضاً. فمع جنوح الزمن إلى البساطة في التفهيم، قام الرأي الإنجليزي الذي في السياسة وفي الوطنية، قام يزن الأمور في أمر اللغة حتى لا يختل وعاؤها ويندلق ما فيه.

ونحن هنا في الشرق نحب أن نكسب اللغة العربية من البساطة ما كسبه الإنجليز لقومهم الإنجليزية. فمع تمسكنا بالكلمات العربية الحلوة، والأساليب العربية الجميلة، نحب أن نترك منها كل لفظ يعرق في ثقله، لا يبين في معناه، لا يتمشى مع ألسنة عرب العصر الشرقي. [illegible] أن الكلمات في لغة أو في أدب، [illegible] لا يطيب إلا إذا ما اتخذ في بعض القوم أحياناً، فتحاياتي من كتب لا يجوز الحلوق إلا بكوب من ماء.

أحمد زكي

الفن للفن

أصبح أن المجموع الأعظم من دعاة فكرة «الفن للفن» لم يكن من التنظيم والتسديد بحيث يثبت هذه الفكرة وكرًا من الأساس، وإن هذا في لغة الهاجمين أنهم تخطوا قلة الظفر، وأنهم ركزوا الراية فوق القمة، وانتهى كل شيء.

هاتوا لنا حجة هؤلاء الزاعمين بالظفر، أريد حجتهم في أن يقولوا: إن الفن من الحياة وإلى الحياة؟

نعم: الفن من الحياة وإلى الحياة، لا نجادل في ذلك البتة، ولكن هل يقول أهل «الفن للفن» غير هذا؟ لا. بل يقولون إن الحياة نفسها بحاجة إلى هذا الذي ندعوه «الفن للفن». بل هم يقولون أكثر من ذلك حين يعترفون بأن العمل الفني الذي لم يشتق من الحياة ولا تشتق منه الحياة، إنما هو عندهم شيء آخر يصح أن يسمى كل شيء، ولا يصح أن يسمى فناً.

النفس الإنسانية بحاجة إلى صوت يعصف بالمجاهل الخفية من شعابها ليثير فيها كوامن حية، مكبوتة مقهورة. والنفس الإنسانية بحاجة إلى الشوق لنشوة علوية عاصفة، حرمها العقل منذ أجيال لذاذتها السحرية. والفن الجميل المطلق هو باعث هذه النشوة الخالدة. فلا تحرموا النفس الإنسانية المكبوتة صوت هذا الرائد الجميل، ولا تحرموا النفس الإنسانية الظامئة لذتها الكبرى، ونشوتها الخالدة. وأطلقوا لها هذه الرغبة المحبوسة عن الآفاق أيها العقلاء القساة!

(حماة) [illegible]

الكتب الجديدة

(١) العرب في أسبانيا

هو كتاب قيم ألفه الأستاذ «ستانلي لين بول» المستشرق المعروف وترجمه الأستاذ علي بك الجارم الأديب المشهور.

وللمؤلف معروف بتحقيقه التاريخي وحبه للعرب وتاريخهم . وهو يمتاز من الكتب المؤلفة في هذا الباب باطلاع المؤلف على المصادر الأسبانية والمصادر العربية واختياره منهما الآراء المعقولة الصحيحة، وعرض ذلك كله عرضاً قصصياً جذاباً والإشادة بمحاسن العرب والعتاب على أخطائهم واللوم في موضع غلطهم . والترجمة أدبية حسن الأسلوب قوي النسج، ويرجع إلى الأصول العربية في القصائد ونحوها فيثبتها نصياً . وقد جرى في الترجمة على الحرص على المعنى، ومبالغته على النمط الذي يتفق والروح العربي، من غير تقيد دقيق بالنص الحرفي الأصلي.

(٢) قالت لي سمراء

ديوان شعر لطيف للمحامي الأديب السوري نزار قباني، لم يحسن فيه الأسلوب وسبك النسج بقدر ما تفنن بتصويره وعواطفه . والديوان يدل على حس يصح أن يكون منه بعدُ شاعر كبير، إذا سار على النهج وبذل الجهد ودرس الشعر القديم والحديث، وأسلم — كما يصنع الآن — إلى شهوة الحس، وعواطفه الشهوية.

(٣) تاريخ ما قبل التاريخ

للأستاذ عبد الله حسين

وكما قال في صدر كتابه «إن موضوعه يتناول تلك العصور السحيقة التي سبقت الحضارات التاريخية القديمة المعروفة مبتدئاً بالتكوين وظهور الحياة على الكرة الأرضية، عارضاً للتقلبات الطبيعية، ونشوء الإنسان وتطوره والاتجاه الأدبي والعقلي».

وقد عرض فيه تاريخ الأرض قبل [illegible] [illegible] في التطور والدين [illegible] والفلسفة والصناعة الخ.

وفي الكتاب معلومات قيمة بذل في جمعها المؤلف جهداً كبيراً، وإن أخذ عليه شيء، فحاجته إلى الترتيب المنطقي، والكتاب الذي يبحث في التطور يجب أن تكون عنايته الأولى بتطور الفكر وتسلسله المنطقي.

(٤) وحي الرافدين

الأستاذ محمد علي الحوماني

«مجموعة أفكار جنى بها في قلبي جمال الرافدين وعبقرية الطبيعة فيهما ووحاه الخلق العربي المطبوع على شفاهما.

«هذه المجموعة من الأفكار المستوحاة من جمال العراق وجلاله في المجالس التي شهدتها ونفراً من أبنائه وأعلامه، أوزنتها للذكرى وإعلاناً بجميل إخوان كنت فيهم أسعد بلطف وعطف، ثم بعثتها للأجيال في كتاب أسميته وحي الرافدين».

وقد عرض في أثناء رسالته لأفكاره في مسائل اجتماعية شتى، كالعروبة والأدب والموسيقى والجمال والحقيقة وقوة الروح والإصلاح الأدبي والإصلاح الديني والحجاب والسفور الخ . كما في الكتاب تعريف بنخبة من أعيان الأدب والفن في العراق.

(٥) صور وأحاديث اجتماعية

للأستاذ عبد الرزاق محمد الهلالي

أخرجته مطبعة الرشيد ببغداد وهو مقالات اجتماعية وخطرات وأحاديث، في مثل: أدب الحرب، وفي مجلس أبي العلاء، ولماذا نكتب، وحديث العيد.

وفيه نظرات صادقة كمقالته في النقد الأدبي.

(٦) الإنكليز كما عرفتهم

مطالعات ومشاهدات من المجتمع البريطاني

للأستاذ أمين المميز من أعضاء السلك الدبلوماسي العراقي . وقد عاش الأستاذ بضع سنين في إنجلترا فدرس

أحوالهم ، فهذا الكتاب نظرة عراقي إلى المجتمع الإنجليزي ، كنظرة حافظ باشا عفيفي المصري إليه ، وقد بنى كتابه على خبرته المباشرة ومطالعاته الكثيرة فيما ألف عن المجتمع الإنجليزي . وهذا جزؤه الأول يبحث في الرجل الإنجليزي من نواحيه المختلفة ، والمرأة الإنجليزية ، وحياة الإنجليز السياسية والاجتماعية والكتاب مفيد قيم ، ونرجو أن يتم قريباً الجزء الثاني ، وقد وعد أن يتناول فيه القضاء الإنجليزي والرأي العام والتربية والجيش .

ونحن أحوج ما نكون في نهضتنا الحاضرة أن يكتب لنا من الأمم المختلفة حتى نستفيد من كل ما هو أليق بنا وأنفع لنهضتنا .

(٧) محمود تيمور

رائد القصـــة العربية

الأستاذ زكي الحكيم

عرض فيه عرضاً تحليلياً لرسالة الأديب والفن ، والقصة والمسرح ، وأسلوب محمود تيمور وتحليل إنتاجه الأدبي والتطورات التي سار فيها ، في أسلوب تحليلي جيد .

(٨) وامعتصماه

ومسرحيات أخرى

أخرجت دار الثقافة العربية سلسلة من الكتب الأدبية المفيدة أشرنا إليها من قبل ، وها هي تخرج اليوم مسرحيات بدأت أولاها بهذا الكتاب للأستاذ عبد الوهاب أبي السعود ، وهي قصة جذابة حصلت حوادثها في عهد المعتصم بين سامرا وعمورية .

(٩) تقارير عن حالة المعارف

السورية ، واقتراحات لإصلاحها

الأستاذ ساطع الحصري من أخير رجالات الشرق بالتعليم والتربية . كان له الأثر الصادق العميق النفع في توجيه التعليم في العراق ووضع دعائمه والسهر على تنفيذه ، رغم ما كان يجد في سبيله من عقبات .

واليوم يوضع في يده التعليم في سورية فيدرسه درساً عميقاً ويضع هذا التقرير لإصلاحه ، فيبحث في تشكيلات وزارة المعارف والتعليم الابتدائي والثانوي والعالي ... [illegible] والتشريع المدارس والمناهج ، ويعالج كل ذلك مبيناً العيوب والأمراض المستحكمة ، وفي ضوئها يذكر ضروب ما يقترح من علاج .

وفي آخر ذلك كله تقرير قيم عن توثيق الصلات الثقافية بين سورية وسائر الأقطار العربية .

والكتاب يتجلى فيه العمق في التفكير ، والأمانة في إبداء الرأي ، فلا يبديه إلا بعد درس وتمحيص ، ووقوف تام على ظواهر الأمور وبواطنها ، وهو هام لكل من يشتغل بالتربية في الشرق ، ممتع لمن يقرؤه بالتفكير وإن خالفه في وجهة النظر .

(١٠) المعري ذلك المجهول

الأستاذ عبد الله العلايلي

هذا كتاب أخرجته مجلة الأديب اللبنانية للقراء . والأستاذ العلايلي أديب مفكر مبتكر ، أخرج كتباً قيمة كمقدمة لدرس اللغة العربية ، وتاريخ الحسين نقد وتحليل ، ودستور العرب القومي الخ . وقد حاول في هذا الكتاب أن يدرس أبا العلاء على أنه أديب رمزي ، ويهتم في درس منهجه في عرض آرائه أكثر مما يهتم بآرائه نفسها .

ويعتقد أن أبا العلاء تأثر تأثراً كبيراً برسائل إخوان الصفا ، وهي رسائل وضعت على مذهب الباطنية ولهذا حذوهم في إشاراتهم وإيماءاتهم وإلغازهم ، وذهب يشرح فلسفة المعري على هذا الأساس ، فمثلاً قول المعري :

تواصل حبل النسل ما بين آدم

وبيني ولم توصل بلامي باء

قال : « إن هذا البيت أعجز الشارحين وفسروه تفسيرات مختلفة . أما أنا فأجد فيه دليلاً على تعلق أبي العلاء بعلم الحرف الروحاني ، فحرف الباء هوائي وحرف اللام ترابي ، وعليه فالمعنى يشير إلى أن فنائي لم توصل به نسمة ... أضف إليه أن حرف الطاء ترابي أيضاً ، وهو يشير إلى أن النسل هواء بين ترابين ونسمة بين فنائين » الخ .

وفي الكتاب فروض كثيرة تحتاج إلى التدليل كما أن فيه بعض توجيهات جديدة .

(***)

رقصة النيل

رقص النيل على لحن الشعاع
وحنا الموج على ظل الشراع

ومضى الزورق يختال الهوينا
ينشد الشاطئ، والشاطئ، أينا ؟

ساعياً كالشاعر في سماء الخاطر
يا له من ساحر في خضم زاخر

كالندى النشوان
راقص الألحان

نغمة من ذوب تغريد الطيور
بهجة من لحن تقبيل الزهور

[illegible] في سكون الشاطئ [illegible]
[illegible] في خشوع العابد [illegible]
رق الأ[illegible]
من سنا الأ[illegible]

فتنة من ساحر لفتة من شاعر
فتنة من زاهر بسمة من زاهر

رقص الألحان
من نهى الفنان

بينما الليل خجول قد جرى
طاب فيه السمر لا طاب السرى

هامت الأمواج تشدو بالغناء
وتبدى الفجر بسام الضياء

فشجا اللحن حنوناً ورقيق
فتهادى في دلال شيق

يا لنادي عاطر باللطيف عابر
أين مني ساحري؟ أين دنيا ثائري

ثورة الأشجان
تشعل النيران

ويذيب الطهر في قلب الوجود
وتمت الشوق في القلب الشريد

عزت عماد منصور

إلى فتاة أحلامي

أسدل الليل حجبه فتعالي   نشرع الكأس لذة وهياما
قبلة منك تبعث الميت حياً
ملأ الكون بهجة وابتساما
فارقصينا للهوى في غفلة الدهر
فقد أصبح الصداة رماماً
اقطفي زهرة الأماني بلطف
قبل أن يوقظ الصباح الذاكي
[illegible] الأمواه بين عناق
الروح حيناً فلنغتل الأياما
[illegible] لا [illegible] القلب صماً
هامو الوجد بالدموع تباكى
[illegible] وهمة عب
لم يجد في الحياة إلا ظلاما
نعم الناس بالسعادة ثوبا
وحلت الشقا لصدري وساماً
أنا إني أذيب الغرام شبابي
وسقاني كأس الصدود انتقاما
فلكم ناح في مذابحه قبل
ضحايا الهوى وماتوا كراما
يا صغير الفؤاد إني أوحش الليل
وهاجت هواجسي الأحلاما
بدني قد صبغت (سترتك) الحمراء
حتى فتنت فيها الأناما
وأضاء أطلها الحب وافتاض
بها قلبي الكئيب غراما

(بغداد)   ضياء الدملوجي